مدنية

ترتيبها ٤

سورة النساء

آياتها ١٧٦

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾

يا أيها الناس، خافوا ربكم وراقبوه واخشوه، فقد خلقكم من إنسان واحد، وهو آدم، وخلق من آدم حواء، فسبحان من خلق حيًا من ميت، كما خلق ميتًا من حي، وهو آدم، فأنتم أبناء رجل واحد، وأم واحدة، فراقبوا الله في هذه الأخوة الإنسانية التي تربطكم، وهذا النسب الذي يوحد بينكم، وهذا الحسب الذي يجمعكم، وهو - سبحانه وتعالى - نشر من آدم وحواء بشرًا كثيرًا، وخلقًا لا يُعد ولا يُحصى، ثم عليكم باتقاء الله - سبحانه وتعالى - في كل شؤونكم وفي كل أموركم وراقبوا الله في أرحامكم، فلا تقطعوها؛ لأنه - سبحانه وتعالى - يعلم أعمالكم، ولا تخفى عليه أحوالكم وهو يسمع أقوالكم، ومطلع على ما في سرائركم عالم بما في ضمائركم، وهو رقيب على كل شؤونكم حذر الله عباده من التفريط في رابطة التقوى التي تصعد بهم إلى منزلة كمال الوحدة الإنسانية ورابطة الرحم التي تقوي ذلك.

(٢) ﴿وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾

وعليكم بأن تدفعوا أموال اليتامى إليهم إذا بلغوا سن الرشد، ولا تأكلوا أموالهم التي هي محرمة عليكم وتتركوا أموالكم التي أحلها الله وجعلها طيبةً لكم، فيحملكم الطمع والجشع على الاستيلاء على أموال هؤلاء الضعفاء المساكين، فتتركون ما أباح الله، وتأكلون ما حرم الله وإن فعلتم ذلك فإنه ذنب عظيم وظلم أثيم، ومنكر من العمل.

(٣) ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا﴾

وإذا خشيتم عدم العدل في مهر اليتيمة بحيث لو تزوجتم منها ولم تعطوها ولم تدفعوا لها المهر الذي يدفع لمثلها من غير اليتامى، فتزوجوا غيرها من النساء، ولو تزوج كل رجل اثنتين أو ثلاثًا أو أربعًا ولم يَزِدْ على ذلك من الحرائر فله ذلك؛ لأن الله أباح التعدد إلى أربع، ولكن إذا خشي الإنسان ألا يعدل بين زوجاته في السكنى أو النفقة أو نحو ذلك وظن أنه سوف يجور ويظلم إحداهن فلا يوفيها حقها، فعليه أن يتزوج واحدة فقط، فهو أقرب للعدل وإذا لم يستطع ولم يكتف بواحدة وخاف من الجور لو تزوج أكثر من واحدة، فله أن ينكح من السراري ما شاء، فإنه أحسن له وأبعد عن الجور والظلم.

(٤) ﴿وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا﴾

على المسلم أن يعطي المرأة مهرها ولا يستعلي عليها بهذا المهر، فإنه حق لها وهو أقل الواجب لها، ولكن إذا تفضَّلت وسمحت نفسها بشيءٍ من المهر على طريق الهدية فلا بأس أن يأخذه الزوج حلالاً طيبًا.

(٥) ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾

لا تعطوا من يسرف من النساء واليتامى وغيرهم الأموال التي تحفظونها لهم، أو أموالكم على سبيل الهبة التي بها نظام حياتكم وصلاح أموركم وتسديد مراداتكم في الحياة؛ لأنهم سوف يتلفونها لسفههم وسوء تدبيرهم، ولكن

أطعموهم من هذا المال بما يكفي مثلهم، وألبسوهم من الثياب ما يسترهم ويجملهم، ولينوا لهم في القول حتى تجبروا خواطرهم وتقنعوهم بأحسن الألفاظ وأطيب الأقوال وفي الآية تنفير من الإسراف وبيان مغبّته وأنه من شأن السفهاء.

(٦) ﴿ وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾

واختبروا هؤلاء الأيتام إذا بلغوا سن الرشد، فإذا علمتم منهم الرشد وحسن التدبير وجميل التصرف، فلا بأس بدفع الأموال إليهم دون أن تؤخروها، ولا يجوز أكل أموالهم بطريق الحيلة والمسارعة إلى أكل هذه الأموال قبل أن يرشدوا؛ لأن بعضهم ينفق من مال اليتيم قبل أن يكبر فيطالبه اليتيم فيسارع بإتلاف هذا المال، وإذا كان من الأولياء من هو غني فليتعفف عن أكل مال اليتيم، فقد أغناه الله عن ذلك، أما إذا كان الولي فقيرًا فعليه أن يأخذ بقدر حاجته الضرورية ولا يزيد على ذلك، كأجرة مثله من الأجانب، ومنها أجرة العامل ونحو ذلك، فإذا أعطى الولي اليتيم ماله بعد أن يرشد فعليه أن يُشهد على ذلك لئلا يقع الخطأ أو الجحد بعد القبض، وكفى بالله محاسبًا للناس ورقيبًا على أعمالهم، وأحوالهم، وسوف يحصي كل هذه التصرفات ليجازي العباد بها، فهو أهْلٌ أن يُراقب وأن يُخشى ويُتقى سبحانه وتعالى.

(٧) ﴿ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ ۚ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ﴾

للأولاد والبنات حق في الميراث مما تركه آباؤهم وأقاربهم، سواء كان الميراث قليلاً أو كثيرًا، أو كان مما يصلح للرجال من عدة الحرب أو ما يصلح للنساء من الحلي ونحو ذلك، وهذا ردٌّ على شريعة الجاهلية الآثمة التي كانت تَحْرِم المرأة الميراث وتجعله للرجل وتقول كيف نورث من لا يشد في المعركة شدًا، ولا يستقبل وفدًا، فكذبهم الله – سبحانه وتعالى – ورد عليهم، وجعل للمرأة حقها نصيبًا ثابتًا وحظًا مقررًا وقسمًا محددًا، لا يجوز الجور فيه ولا إهماله بحال من الأحوال.

(٨) ﴿ وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُم مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴾

وإذا حضر قسمة التركة بعض الأقرباء الذين لا يرثون أو بعض اليتامى والمساكين الغرباء، فقدروا لهم شيئًا من هذه التركة، من أجل تطييب خواطرهم، وقولوا لهم كلاماً جميلاً طيباً.

(٩) ﴿ وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴾

وليتذكر الأوصياء على اليتامى حال أولادهم إذا ماتوا وتركوهم يتامى ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، هل يرضون لهم الذل والضعف وضياع المال؟! فليتقوا الله إذن في أفعالهم وليخاطبوا اليتامى باللين والعطف والحنان كما يخاطبون أولادهم.

(١٠) ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾

الذين يعتدون على أموال اليتامى فيأخذونها بلا حق شرعي، وبلا موجب، ويستبيحونها لأنفسهم فهم بفعلهم هذا يجعلون لأنفسهم طريقًا إلى النار، فهم إنما يأكلون حرامًا وسحتًا يوصلهم إلى عذاب الجحيم الذي لا يُطاق، تلك النار الهائلة المستعرة التي لا يصلاها إلا الأشقى، فعليهم أن يتوبوا من أكل أموال اليتامى ويردوا إليهم أموالهم كاملة، وأن يخافوا الله – سبحانه وتعالى – في هؤلاء المستضعفين.

(١١) ﴿ يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

في هذه الآية تفصيل لأحكام المواريث التي وردت بالإجمال في الآية السابعة من هذه السورة، أي يأمركم الله ويعهد إليكم، بالعدل في شأن ميراث أولادكم الذكور منهم والإناث، فإذا ترك الميتُ أبناءً وبنات، فللابن ضعف ميراث البنت،

وإذا لم يكن للميت إلا الإناثُ، وكنَّ اثنتين فأكثر، فلهنَّ الثلثان من التركة، وإن كانت بنتًا واحدة، فلها نصفُ تركة أبيها، وإنما كان نصيب الذكر ضعف الأنثى لكثرة التزاماته فهو الذي عليه المهر، والنفقة، والإنفاق على الأسرة، بينما الأنثى لا تُكلَّف بشيء من الإنفاق، ولكل واحدٍ من الأب، والأم سُدسُ التركة، إن كان للميت ولدٌ - ذكر أو أنثى - فإن لم يكن له من يرثه من الأولاد، وليس له وارث إلا الأب والأم، فللأم ثلث التركة، والباقي للأب، فإن كان له إخوة - اثنان فأكثر - فلأمه السدس، وتُقسَّم التركة كما فرضها الله، من بعد تنفيذ وصية الميت، وقضاء ديونه للعباد، ولقد تولَّى تعالى قسمة المواريث بنفسه، ولم يتركها لأحدٍ من خلقه، لئلا يقع حيفٌ أو ظلم، ولو تُرك الأمر إلى البشر، لضاعت حقوق كثيرة؛ لأنكم لا تعلمون من هو أنفع لكم من آبائكم وأبنائكم، فاتركوا الأمر لخالق العباد، فهو أعلم وأدرى بما يحقق مصالح البشر.

١٢ ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۚ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ ۗ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ ۚ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ ۚ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ ۚ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾

ولكم أيها الأزواج نصف ما تركته زوجاتكم، إن لم يكن لزوجاتكم ولدٌ منكم أو من غيركم، فإن كان لهن ولدٌ فلكم الربع مما تركن من الميراث، من بعد الوصية، وقضاء الدين، ولزوجاتكم -واحدة فأكثر- الربع مما تركتم من الميراث إن لم يكن لكم ولدٌ مطلقًا، فإن كان لكم ولد فلزوجاتكم الثمن مما تركتم من الميراث، من بعد إخراج الوصية وقضاء الدَّين عن الميت، وإذا كان الميت لا آباء له ولا أولاد -وهذا معنى الكلالة- وورثه بعض الأقارب، كالأخ، أو الأخت من الأم، فلكل واحدٍ منهما السدسُ، فإن كان الإخوة والأخوات من الأم أكثر من واحد، فإنهم يقتسمون الثلث بالسوية، ذكورهم وإناثهم في القسمة والاستحقاق سواءٌ، لقوله سبحانه: ﴿شُرَكَاءُ﴾ والشركة تقتضي المساواة، وهذه القسمة تكون بعد تنفيذ الوصية، وقضاء الدين، ويُشترط في الوصية أن تكون للمصلحة، لا بقصد حرمان أحدٍ من الورثة، أو الإضرار به، كأن يوصي بأكثر من الثلث، هذه وصية الله إليكم، ومن رحمته تعالى أنه لا يعجِّل العقوبة لمن خالف أمره.

١٣ ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

الأحكام التي ذُكرت فرائضه وأوامره التي لا يجوز أن تُخالف أو يُتعدى فيها، ومن يمتثل أمر الله - سبحانه وتعالى - بتقواه وأمر الرسول ﷺ باتباعه فجزاؤه عند الله أن يكرمه بالجنات التي ادخرها لأوليائه، وهي حدائق جميلة وبساتين بديعة تجري من تحت قصورها ودورها المياه العذبة والأنهار السائحة، وجزاؤهم أن يمكثوا فيها بلا فناء، وأن ينعموا فيها بالبقاء مع صحة بلا سقم، وحياةٍ بلا هرم، وغنىً بلا عدم، وأمن بلا خوف ولا حزن.

١٤ ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

ولكن من يخالف أمر الله - سبحانه وتعالى - ويخالف أمر الرسول ﷺ فلا يلتزم أمره ويقع فيما نهى عنه، ولا ينفذ أحكامه التي شرعها لعباده فجزاؤه نار جهنم يصلى حرها مع الإهانة والإذلال والأغلال والأنكال خالدًا مخلدًا لا يزول عذابه ولا يخفف عقابه.

﴿١٥﴾ ﴿ وَٱلَّٰتِي يَأۡتِينَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمۡ فَٱسۡتَشۡهِدُواْ عَلَيۡهِنَّ أَرۡبَعَةٗ مِّنكُمۡۖ فَإِن شَهِدُواْ فَأَمۡسِكُوهُنَّ فِي ٱلۡبُيُوتِ حَتَّىٰ يَتَوَفَّىٰهُنَّ ٱلۡمَوۡتُ أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴾

والنساء اللواتي يرتكبن فاحشة الزنا فعليكم - أيها الرجال - أن تُشهدوا عليهن أربعةً من الرجال العدول الثقات بحيث لا يكون في الشهادة جور ولا إثم، وبحيث يكون الشهود عدولا، فإذا شهدوا شهادة واضحة لا لبس فيها ولا تدليس، فعليكم بحبس النساء في البيوت إلى وقت الموت فلا يخرجن من البيوت؛ نكالاً لهن وتأديبًا على ما فعلن وتعزيرًا على سوء صنيعهن، أو يجعل الله - سبحانه وتعالى - طريقًا آخر وحلاً غير هذا، وقد نسخ الله هذه الآية، فحد الحَدَّ - سبحانه وتعالى - في الزنا وبيّنه وشرحه للناس كما في أول سورة النور.

﴿١٦﴾ ﴿ وَٱلَّذَانِ يَأۡتِيَٰنِهَا مِنكُمۡ فَـَٔاذُوهُمَاۖ فَإِن تَابَا وَأَصۡلَحَا فَأَعۡرِضُواْ عَنۡهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمًا ﴾

والرجل والمرأة إذا اقترفا فاحشة الزنا فعليكم بتأديبهما وتعزيرهما وتوبيخهما وجلدهما، فإن أقلعا عن الفاحشة وتابا إلى الله وأصلحا فيما بينهما وبين ربهما فعليكم بعدم تذكيرهما بالذنب، والإعراض عنهما، وكف الأذى عنهما؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - يتوب على من تاب، ويعود بلطفه على من أناب، وهو - سبحانه وتعالى - واسع الرحمة لمن عاد إليه، ومهما ارتكب من الكبائر والفواحش فعليكم - أيضًا - أن تعودوا على من تاب بالإعراض، والكف عن إيذائه.

﴿١٧﴾ ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾

التوبة الصحيحة المتقبلة التي يتوب الله على أصحابها هي التي تحصل من قوم ارتكبوا المعصية عن سفه وجهالة، ثم شعر أحدهم بالذنب والندم والأسف والانكسار، فعاد إلى ربه - سبحانه وتعالى - وأناب وأقلع وانخلع من ذنبه واعتذر إلى ربه، لا كالذي يرتكب الأخطاء عن عمدٍ وعن علم وسخرية واستهزاء بربه، وتهاون بأمر مولاه، فمن عاد إلى ربه تعالى بعدما ارتكب الذنب عن سفاهة وجهلٍ، وأناب وصدق فإن الله - سبحانه وتعالى - يغفر ذنبه، ويستر عيبه، ويبدل سيئاته حسنات، ويكرم مثواه؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - عليم بمن صدق في توبته وعاد إلى مولاه بإخلاص، وهو حكيم - سبحانه وتعالى - يضع كل شيء موضعه، لا يعذب غير من يستحق العذاب، يعطي كل إنسان ما يستحقه من ثواب أو عقاب بحكمة متناهية، وقدرة فائقة.

﴿١٨﴾ ﴿ وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

والتوبة المتقبلة الصحيحة لا تُعطى لمن أسرف في الإجرام، واستمر على الآثام، وارتكب المحارم بعمدٍ، وقصر واستهزأ بوعد الله - سبحانه وتعالى - ووعيده، فإذا فاجأه الموت وأخذ يعتذر وأخذ يتنصل من ذنوبه، هذا ليس ممن يستحق التوبة؛ لأنه أسرَّ واستكبر وتجرأ على محارم الله -عز وجل- وسوّف بالتوبة وأخر الإنابة، وكذلك لا يُتاب على من مات كافرًا، بل هو خالد مخلّدٌ في النار، فإن الله لا يقبل من كافر عملاً ولا شفاعة، ولا يدفع عنه العذاب يوم القيامة دافع، هؤلاء أعدّ الله - سبحانه وتعالى - لهم العذاب الأليم الموجع، والنكال الدائم، والعقاب المقيم.

﴿١٩﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۚ فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ﴾

أيها المؤمنون، لا يجوز لكم أن تتلاعبوا بميراث المرأة كما يتلاعب بسقط المتاع، فلا يحل لكم أن تحرموا المرأة ميراثها، أو تتوارثوا المرأة بعد موت زوجها كرهًا ورغمًا لها، ولا يجوز لكم أيها الأزواج أن تمنعوا المرأة بعد طلاقها الزواج بزوج آخر لتعودوا إلى ما أعطيتموهن من المهر فتأخذوه ظلمًا وعدوانًا، وهذا فيمن يرغم في أن تفتدي نفسها دون موجب إلا في حالة واحدة أن تأتي المرأة بفاحشة واضحة فإنه يجوز للرجل أن يضيق عليها وأن يعزرها ويؤدبها

حتى تفتدي ببعض مالها كما قال بعض السلف، ولكن في العموم عليكم بحسن معاشرة المرأة واللطف معها ورحمتها وتَحَمُّل ما يبدر منها، واتقاء الله - سبحانه وتعالى - فيها، وعدم الإضرار بها، وهذا كله لضعف المرأة ولعدم قدرتها على مصاولة الرجل، وعليكم بالصبر على المرأة فيما يبدر منها من نقص أو حدة أو نحو ذلك، فربما كان الخير في الإمساك، فيرزقكم الله - سبحانه وتعالى - الذرية الصالحة، والأبناء المفلحين، فيكون الصبر عليهن من الحكمة، وتكون العواقب سليمة؛ لأن الله يأجر من صبر ومن حلم. وفيه حث على الاستمرار في الحياة الزوجية، وعلى تلافي الأخطاء من الجانبين، وعلى حسن العشرة بين الزوجين، وفيه حث على الرحمة بالمرأة واستدامة العشرة معها ولو بدرت منها أخطاء، وفيه نهي عن التعجل بالطلاق، لما فيه من هدم الأسر وتشتيت الأبناء وكسر القلوب وتوريث الإحن والأحقاد في النفوس، فالطلاق لا يُفزع إليه إلا أن يكون حلاً أخيرًا، ويكون الإنسان مضطرًا إليه اضطرارًا لا يجد مخرجًا منه.

٢٠ ﴿ وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

وإذا رغب أحدٌ منكم - أيها المؤمنون - أن يتزوج زوجةً أخرى، ويطلق الزوجة التي معه بسبب شرعي وقد أعطى هذه المطلقة مالاً كثيرًا ولو ما يبلغ القنطار الذي لا يُعد ولا يُحصى من الذهب، فلا يجوز له أن يعود على هذا المهر، فلا يأخذ منه شيئًا، فإنه حق خالص لهذه المرأة، وأخذه ظلم وجور وتعدٍّ وبغي، ولا يفعله إلا كل ظالم جبار لا يراقب ربه ولا يخاف مولاه، فإن أحقية المرأة بالمهر لا شك مقابل الاستمتاع الذي حصل والعشرة التي وقعت.

٢١ ﴿ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴾

هل يحل لكم أن تعودوا إلى مهر المرأة وتأخذونه غصبًا وظلمًا وأنتم تعلمون أنه وقع بينكم من الخلوة والمعاشرة الخاصة والتمتع بالأجسام وقضاء الوطر ما يفوق أضعافًا مضاعفة من هذا المهر؟! فكيف لا تُقدِّرون ما حصل من هذه الأمور الخاصة وهي عظيمة؟ وقد أخذ الله - سبحانه وتعالى - العهد الوثيق على الزوج في العقد الشرعي الذي سنه رسول الهدى ﷺ وذكره بقوله: «**اتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله**»، فعلى العبد أن يراقب ربه في هذا العهد الوثيق الذي قام بينه وبين الولي على الزواج من هذه المرأة وأن يراعي ذلك الميثاق الغليظ.

٢٢ ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾

لا تتزوجوا بزوجات آبائكم بعد موتهم، إلا ما سبق منكم في الجاهلية فقد عفا الله عنه؛ لأن الإسلام يهدم ما قبله، فإن نكاح زوجات الآباء أمرٌ قبيح، متناهٍ في القبح والشناعة، وساء هذا النكاح المشؤوم طريقًا لقضاء الوطر، إذ كيف يليق بالعاقل أن يعلو امرأة أبيه بعد وفاته، وهي مثل أمه؟ كان الرجل في الجاهلية إذا تُوفي أبوه هو الأحق بامرأته، إن شاء نكحها - إن لم تكن أمه - وإن شاء زوَّجها لمن يريد وأخذ مهرها، فلما تُوفي "أبو قيس بن الأسلت" قام ابنه يريد أن يتزوَّج بزوجة أبيه، فقالت له: إني أعدُّك ابنًا لي، ولا أقبلُ حتى آتي رسول الله ﷺ فأسأله عن هذا الأمر، فأتته فأخبرته فنزل قوله تعالى: ﴿**ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم** ..﴾ الآية، ثم ذكر تعالى المحرمات من النساء في الآية.

٢٣ ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

فصل المولى - عز وجل - من يحرم نكاحهن من النساء، وبدأ بالمحرمات من النسب، وهنَّ سبعٌ: «**الأمهات، البنات، الأخوات، العماتُ، الخالات، بنات الأخ، بنات الأخت**» فهؤلاء يحرم نكاحهن بسبب القرابة والنسب، والأمهات يدخل

فيهن الجدات، والبناتُ يدخل فيهن بناتهنَّ، والأخوات يشمل الأخوات الشقيقات، والأخوات من الأب، والأخوات من الأم من أيِّ جهة كُنَّ، والعمات يشمل أخوات الآباء وأخوات الأجداد، والخالات يشمل أخوات الأمهات وأخوات الجدات، وبنات الأخ وبنات الأخت يدخل معهن بناتهن. ثم ذكر - تعالى - المحرمات من الرضاعة، وتحرم عليكم أمهاتكم من الرضاعة، وهي الأم التي رضع منها الطفل قبل اكتماله العامين، وأخواتكم اللاتي رضعن معكم، ولم يذكر - سبحانه - من المحرمات من الرضاعة سوى «الأمهات والأخوات» وقد وضحت السنة النبوية، أن المحرمات من الرضاعة سبعٌ كما هو الحال في النسب، فقد روى البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب**» ثم ذكر - تعالى - المحرمات بالمصاهرة، ويحرم عليكم أمهات زوجاتكم، وهنَّ محرمات بمجرَّد العقد على بناتهن، والربائب جمع ربيبة وهي بنت الزوجة من زوج آخر، يحرم نكاحها إذا كان قد دخل بأمها، فإن لم يكن قد دخل بها وفارق أمها قبل الزفاف، فلا حرج من نكاح ابنتها، والقاعدة في هذه المسألة، (العقد على البنات يُحرِّم الأمهات، والدخول بالأمهات يحرِّم البنات)، ويحرم - أيضًا - نكاح زوجة الابن الصُّلبي، لا الابن من التبنّي، فخرج بذلك الأدعياء من أولاد التبني، ويحرم الجمع في النكاح بين الأختين، وجاءت السنة النبوية بتحريم الجمع بين الزوجة وعمتها، والزوجة وخالتها، فقد روى مسلم بسنده أن النبي ﷺ: «**نهى أن يجمع الرجل بين المرأة وعمتها، والمرأة وخالتها**» وقد كانوا في الجاهلية يجمعون بين الأختين في وقت واحد، إلا ما كان منكم في الجاهلية، فقد عفا الله عنه؛ لأنه - سبحانه - ساتر لذنوب العباد، رحيم بهم.

﴿٢٤﴾ ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ أَن تَبْتَغُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُم مُّحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ ۚ فَمَا ٱسْتَمْتَعْتُم بِهِۦ مِنْهُنَّ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَٰضَيْتُم بِهِۦ مِنۢ بَعْدِ ٱلْفَرِيضَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

وحُرِّم عليكم نكاح المتزوجات من النساء، إلا ما ملكتموهن في الحرب، عن طريق الأسر، فيحل لكم وطؤهنَّ بعد الاستبراء بحيضة، وكتب الله عليكم تحريم ما ذُكر من النساء كتابًا، وفرضه فرضًا، وأبيح لكم نكاح ما سواهنَّ، إرادة أن تطلبوا النساء، بطريق شرعي صحيح، فتدفعوا إلى الزوجة المهر، حال كونكم أعفَّاء متزوجين غير زانين، وسُمي الزنا سفاحًا؛ لأنه لا غرض للزاني إلا سفح الماء (المني) وقضاء الشهوة البهيمية، والمراد بالاستمتاع هنا: التمتع والتلذذ بالنساء، بطريق النكاح الشرعي، لا نكاح المتعة كما يفسِّره الرافضة، حيث أباحوا نكاح المتعة، وهو محرم بالنصوص النبوية القاطعة، حرَّمه الرسول ﷺ في مشهدين عظيمين: حين فتح خيبر، ويوم فتح مكة، وقد سُئل جعفر الصادق - وهو من أئمة آل البيت - عن نكاح المتعة؟ فقال: هو الزنا بعينه، ويدل عليه أن الله ذكر المحرمات من النساء، ثم أعقبه بذكر ما يحل من النساء، بشرط الدوام والاستمرار، ودَفْعِ المهر لهن، ومعنى الآية الكريمة: فما تلذّذتم بالجماع من النساء، بالنكاح الشرعي الصحيح، فادفعوا إليهن مهورهنَّ، فريضة فرضها الله عليكم، ولا حرج ولا إثم عليكم أيها المؤمنون، فيما أسقطن من المهر برضاهنَّ، فالله - سبحانه - عليم بمصالح العباد، حكيم فيما شرع لهم من أحكام.

﴿٢٥﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

ومن لم يجد سعةً من المال أن يتزوج بالحرة العفيفة فله أن ينكح أَمَةً - أي مملوكة مؤمنة - إذا خاف على نفسه الوقوع في الزنا، فليتزوج بها للضرورة، بإذن سيدها ومالكها، ﴿**وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ**﴾ جملة اعتراضية،

لبيان أنه يكفي في الإيمان معرفة الظاهر، والله يتولى السرائر، فلا تستنكفوا من نكاح الأَمَة؛ عند الضرورة، فكلكم بنو آدم، ومن نفس واحدة، وربَّ أَمَة خيرٌ من حرة، فتزوجوهن بأمر أسيادهن وموافقة مواليهن، وادفعوا مهورهن بالعدل والإنصاف، بشرط أن يكنَّ عفيفات، غير مجاهرات بالزنا، ولا عشيقات لرجال بالسر، يفجرن معهم، والخدن: هو الصديق للمرأة يزني بها سرًا، فإذا تعفَّفن عن الزنا بالزواج، ثم زنين، فعليهنَّ نصف ما على الحرائر من عقوبة الزنا، وهو الجلد خمسون جلدة، ولا رجم على الأَمَة، لأن الله - تعالى - جعل عقوبتها النصف، والرجم لا يمكن أن يُنصَّف، هذا الذي بيَّنَاه من نكاح الإماء، إنما هو لمن خاف على نفسه (العنت) أي الفجور، والوقوع في جريمة الزنا، وقد أشارت الآية إلى أن النكاح بالمملوكات للضرورة، ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي وتعففكم أيها المؤمنون عن نكاح الإماء المملوكات خير من نكاحهن، لئلا يصير الولد رقيقًا، والله واسع المغفرة، عظيم الرحمة.

٢٦ ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾

ويريد الله بما شرع لكم من هذه الأحكام، أن يبيِّن لكم ما خفي عليكم من مصالحكم، ومحاسن دينكم، ويرشدكم إلى مناهج الأنبياء والمرسلين، لتقتدوا بهم، وأن يوفقكم إلى التوبة، والله عليم بأحوال العباد، حكيم في تشريعه لهم.

٢٧ ﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴾

والله يريد أن يطهركم من الذنوب والآثام، ويريد الفسَّاق والفجَّار الذين يتبعون الأهواء والشهوات أن يصرفوكم عن التقوى إلى الفجور، وعن الإيمان إلى الضلال؛ لتكونوا مثلهم.

٢٨ ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾

ويريد - تعالى - أن يُسهِّل عليكم في أمر التكاليف الشرعية؛ ولهذا خفف عنكم الأعباء، وجعلكم على الحنيفية السمحة، رحمةً منه وفضلاً، لضعفكم وعجزكم؛ لأن من طبيعة الإنسان عدم الصبر عن شهوات النفس.

٢٩ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴾

أيها المؤمنون، لا يأكل بعضكم مال بعض في الحرام، كأكل الربا والقمار والسرقة والرشوة وأنواع البيوع المحرمة، فإن هذا مما حرمه الله - سبحانه وتعالى - في كتابه وسنة رسوله، واحذروا أن يسفك بعضكم دم بعض، وأن يعتدي بعضكم على عصمة نفس بعضكم، فإن المسلمين نفس واحدة، فمن قتل نفسًا فكأنما قتل الناس جميعًا، وإنما حرم الله - عز وجل - قتل الأنفس المعصومة وأخذ الأموال المحترمة؛ لأنه - سبحانه وتعالى - رفيق بالمؤمنين، رحيم بالمسلمين، فمن رحمته أنه عصم دماءهم، وحفظ أنفسهم، وصان أموالهم، ليعيشوا في أمن وسعادة وتآخ وتآلف.

٣٠ ﴿ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

ومن يقدم على ذلك من قتل النفس وأكل أموال الغير بالباطل فقد اعتدى وظلم، اعتدى على غيره، وظلم نفسه، وجزاء من قام بالعدوان والظلم أن يُصْلَى نار جهنم جزاءً لفعله المنكر، ولعمله القبيح، وتعذيب المعرض والظالم يسير وسهل على الله -عز وجل- فالله لا يعجزه أحد ولا يخرج عن قدرته قوي، ولا يغلبه مغالب، فإن الله إذا أراد شيئًا أدركه وأحاط به، لا معقب لأمره ولا راد لفضله، وهو غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

٣١ ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾

أيها المؤمنون، إذا تركتم كبائر الذنوب والفواحش العظيمة من مثل: الشرك بالله، والسحر وقتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات ونحوها من الخطايا الكبيرة والذنوب العظيمة غفر الله لكم صغائر الذنوب، وتجاوز عن محقرات السيئات، وتغمدكم برحمته

وأدخلكم رضوانه في جنة عدن، حيث الحبور والنور والسرور، والمقام الكريم الآمن، والمقعد الصدق، والخير العميم، والنعيم المقيم، في جنات النعيم.

﴿٣٢﴾ ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾

لا يحسد بعضكم بعضًا فيتمنى الفضل الذي وهبه الله - سبحانه وتعالى - لأخيه، فإن هذه أرزاق مقسومة يمنحها الله - سبحانه وتعالى - من يشاء بحكمة وعلم، فليس للعبد أن يحسد أخاه على ما أعطاه الله -عز وجل- من مال أو أبناء أو جاه أو منصب أو صحة، بل يسأل الله - سبحانه وتعالى - أن يعطيه من فضله ومن كرمه كما أعطى غيره، فإن الله - سبحانه وتعالى - هو المعطي الكريم الوهاب، فكل قسمة بحكمة، وكل هبة بعلم، وكل عطية بتقدير؛ لأن الله عليم حكيم قدير مدبر يعطي من يصلح له العطاء بقدر ما يصلحه، وبقدر ما يستحقه، ويمنع هذا بقدر ما يعلم - سبحانه وتعالى - أنه الأفضل له والأجدر في حقه.

﴿٣٣﴾ ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ ۚ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾

كل ميت له عصبة يرثون من ماله مما تركه والداه وأقاربه، ومن عقدتم معهم حِلفًا في الجاهلية على النصر والميراث فأعطوهم نصيبهم من الإرث، وكان هذا الحكم معمولاً به في أول نزول الرسالة، ثم نُسخ بقوله: ﴿**وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض**﴾ أي: أحق بالإرث، والله - سبحانه وتعالى - مطلع على ما في الضمير. عالم بما في السريرة، لا تخفى عليه خافية، ولا تغيب عليه غائبة. ويأتي وصف الله - سبحانه وتعالى- بالرقيب والشهيد والحسيب عند الحدود والأوامر والأحكام لينبه عباده على أنه - سبحانه وتعالى - لمن خالفه بالمرصاد، وأنه يثيب من أطاعه واتبع رسوله.

﴿٣٤﴾ ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ۚ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ۚ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ ۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾

جعل الله - سبحانه وتعالى - الرعاية والإشراف والإدارة للرجل على المرأة لأمرين:

الأمر الأول: لِما أعطاه الله - سبحانه وتعالى - ومنحه من كمال العقل وحسن التصرف، وجميل التدبير وقوة الشخصية.

والأمر الثاني: لأن الرجل هو المنفق على زوجته، فهو الكاسب والمعطي، والقائم بالحقوق والمتصرف في الأموال، فحقه أن تكون الرعاية والإشراف والأمر والنهي بيده لهذين الأمرين، ثم وصف - سبحانه وتعالى - النساء الصالحات اللاتي يطعن أزواجهن في طاعة الله - سبحانه وتعالى - فتقوم بطاعة الله - سبحانه وتعالى - أولاً من إتمام عبوديته ومراقبته وخشيته، ثم تحفظ زوجها في عرضه، فتحفظ ما بينهما من الأسرار، وتحفظ شرف بيته ونسبه من أبنائه، فلا تغدر به ولا تخونه، ولا تتخذ خَدَنًا، فهي تحفظ زوجها بما أمرها الله - سبحانه وتعالى - بحفظه، وإذا خاف الرجل من زوجته عصيانًا واستكبارًا وتمرُّدًا فعليه أن يعظها ويزجرها ويوجهها التوجيه السليم، ويبين لها الأخطاء وينصحها نصيحةً بالغةً، ويحاورها بالتي هي أحسن، فإن أبت فعليه أن يؤدبها بضرب غير مؤذٍ فيجتنب الوجه والبطن والأعضاء الحساسة في جسمها، وهذا الضرب تأديب وتعزير وليس بتنكيل ولا تعذيب، وهذه كلها حلول جميلة وآداب نبيلة يتنزل فيها الشارع الحكيم مع المرأة لئلا يوصل إلى الطلاق المشين وإلى الفراق المؤذي، وليبقى بيت الزوجية ولتستمر العشرة، وليجتمع الشمل وهو كالعلاج الذي يناوله الطبيب المريض، وقد يكون فيه ما

يكره، وربما صحت الأجسام بالعلل، فإذا أطاعت المرأة واستجابت فالواجب كف الأذى عنها والرحمة بها وحسن العشرة لها؛ لأن المقتضي للتعزير والتأديب قد زال، واعلموا أن الله - سبحانه وتعالى - هو العلي الكبير، فهو عليٌّ على خلقه، له - سبحانه وتعالى - الرعاية العامة بشؤون عباده -جل في علاه- وله التصريف المطلق، وهو كبير - سبحانه وتعالى - في ملكه، وكبير في قدرته وكبير في علمه -جل في علاه-؛ ولذلك نبّه عباده على هذه العظمة ليُخشى ويُخاف، ولا يعجب أحد بقوامته ولا برعايته، ويعلم أن فوقه من هو أعظم منه، فالواجب أن يُخاف وأن يُراقب.

﴿٣٥﴾ ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِن يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾

وإذا خاف الحاكم كثرة الخلاف بين الزوجين فعليه أن يختار رجلاً عاقلاً عادلاً ثقة من أقارب الزوج، ورجلاً عاقلاً عادلاً ثقةً من أقارب الزوجة، فيكلفهم بمهمة الإصلاح بين الزوجين، وسلوك الطريق الأنسب في جمع الشمل، وإنما خصّ القرابة؛ لأنهم أعرف بما يقتضيه الحال، وبملابسات القضية وبأسرار المشكلة، فإذا أخلص الحكمان وصدقا، فإن الله - سبحانه وتعالى - سوف يُصلح الأمور ويكلل المساعي بالنجاح ويوفق الجهود؛ لأنه - سبحانه وتعالى - يعلم السرائر، ويعلم الصادق في نيته من الكاذب، والمخلص في مسعاه من غيره، وهو -سبحانه- وتعالى خبير يعلم أسرار الأمور ويطلع على خفاياها، فلا يحكم إلا بعدل، ولا يقضي إلا بحكمة، ولا يدبر إلا بعلم -جل في علاه-.

﴿٣٦﴾ ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾

ثم أمر الله - سبحانه وتعالى - الناس بعبادته وحده وعدم الإشراك به، وإخلاص العبودية له وإفراده بالوحدانية، وإطاعة أوامره وتصديق رسوله والعمل بكتابه وسنة نبيه محمد ﷺ، وأمر بالإحسان بالوالدين واللين في مخاطبتهما وطاعتهما في طاعة الله والرأفة بهما والإحسان إليهما بكل أنواع الإحسان، ثم أمر بالإحسان للقرابة؛ الذين بين المرء وبينهم نسب وحسب وصلة، فالإحسان إليهم والصبر على أذاهم وصلتهم ثوابه عظيم، والإحسان إلى اليتيم والعطف عليه وحسن الرعاية له، وإيصال النفع إليه يرقق القلب ويقرب من الله، وكذلك المسكين الذي لا يجد قوامًا لحياته ولا ما يكفيه في معيشته فيوصل بقدر حاجته، وكذلك الجار الذي بينك وبينه قرابة فإن له حق القرابة وحق الجوار من حسن التعامل معه وكف الأذى عنه، وكذلك الجار الذي ليس بينك وبينه قرابة وإنما له حق الجوار فحقه أن يُحسن إليه، وأن يُكرم ويُتطلف معه، وأن لا يرى منك إلا خيرًا وإحسانًا وبرًا، وكذلك من رافقك في سفر أو في تجارة أو في عمل من الأعمال، فإن هذا قد صار صديقًا لك فوفٍّ له حق الصداقة، وكذلك المسافر المنقطع في سفره الذي ليس له من يقوم بشؤونه ولا من يقضي حوائجه، فعليك ببذل جهدك في نفعه، فإن الله - سبحانه وتعالى - لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وكذلك المستَخْدَمين ومن لك عليهم حق التصرف والتدبير، فعليك بالرحمة بهم واللطف والإحسان إليهم؛ لأنهم ضعفاء جعل الله لك عليهم القوامة والتدبير، والله - سبحانه وتعالى - لا يحب من كان مختالاً بنفسه بالكبر والعتو والاستعلاء، ولا يحب من يفتخر بلسانه بمديح نفسه وبالثناء عليها وبإطرائها، فإن هذين خلقان مذمومان، وهما من أخلاق إبليس الذي عصى ربه وخرج عن طاعة مولاه، فالواجب على العبد أن يتواضع في نفسه فلا يرى لها قدرًا ولا حقًا، فلا يطالب ولا يعاتب ولا يفتخر بلسانه، بل يحمد الله - سبحانه وتعالى - على ما عنده من النعم، فيتفكر في ذنوبه القصيرة، فينكسر لمولاه، ويتواضع لخالقه، ويخبت لمعبوده.

﴿٣٧﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا ﴾

وهؤلاء المختالون والفخورون بأنفسهم ينطبق عليهم مثل اليهود الذين بخلوا بما آتاهم الله من فضله من العلم ومن المال، ولم يكفهم هذا حتى قاموا ينصحون الناس ويأمرونهم بالبخل وبإمساك أيديهم في الإنفاق، وزادوا على ذلك بأن كتموا العلم الذي منحهم الله إياه، فهم كتموا أوصاف الرسول - عليه الصلاة والسلام - وكتموا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا يشمل غيرهم ممن شابههم من هذه الأمة، فإن من الناس من يبخل بماله، ومنهم من يبخل بعلمه، وهما من شر الخليقة، فإن الواجب على العبد أن يراقب ربه فيما أعطاه من مال وعِلْم، فصاحب المال ينفقه في وجوه الخير، والعالم يُعَلِّمُ بعلمه ولا يكتمه؛ فيلقى ربه عاصيًا له، ثم أخبر - سبحانه وتعالى - أنه هيأ لأعدائه ومن كذّب رسله ومن كفر بهم عذابًا وإذلالاً وخزيًا وعارًا في نار جهنم، حيث الخلود فيها، مع العذاب الفظيع والنكال الشنيع.

﴿٣٨﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۗ وَمَن يَكُنِ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَهُۥ قَرِينٗا فَسَآءَ قَرِينٗا ﴾

ثم ذكر - سبحانه وتعالى - صنفًا آخر ينفق ويعطي لكنه يريد مراءاة الناس وحمدهم ومدحهم والثناء منهم، فعمله مُحبط وسعيه مردود عليه، وإنما ينفق رياءً؛ لأنه لا يؤمن بلقاء الله -عز وجل- وثوابه وعقابه، وإلا لو علم أن الله يحاسب العباد ويجمعهم ليوم لا ريب فيه كان أخلص عمله، وصدق في قوله وفعله، ولكن الشيطان تولاه وأصبح صاحبًا له وقرينًا، فبئس من كان صاحبه الشيطان، وقبحًا لهذا القرين الذي لا يأمر إلا بشر، ولا ينهى إلا عن خير.

﴿٣٩﴾ ﴿ وَمَاذَا عَلَيۡهِمۡ لَوۡ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِهِمۡ عَلِيمًا ﴾

وماذا يضرهم لو أنهم صَدَّقوا بكتاب الله ورسوله ﷺ، وعملوا لليوم الآخر، وأخلصوا أعمالهم، وصَدَقُوا في أقوالهم، وأصلحوا أعمالهم، فكان لهم الثناء الحسن، والأجر الجليل، والمنقلب الطيب عند ربهم ومولاهم، ثم ماذا يضرهم لو أنهم تصدقوا مما أعطاهم الله - سبحانه وتعالى - وكان زكاةً لنفوسهم، وطهارةً لأعراضهم، ونماءً لأموالهم، وكان الله - سبحانه وتعالى - أعطاهم من كرمه ومن واسع فضله وزادهم من خيره وبرّه؛ لأنه - سبحانه وتعالى - عليم لا تخفى عليه خافية. وهنا لما كان هناك دخول في النيات وتحدث عن المقاصد، كان مناسبًا أن يذكر الله - سبحانه وتعالى - علمه؛ لأنه يطلع على الخوافي، ويعلم السرائر لا إله إلا هو.

﴿٤٠﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا ﴾

والله - سبحانه وتعالى - ليس بظلّام للعبيد، فلا يبخس أحدًا مثقال ذرةٍ من التراب، فإذا كانت هذه الذرة من أعمال الخير ضاعفها أضعافًا كثيرة حتى تصبح كجبل أحد، كما في الحديث. وهو - سبحانه وتعالى - يتفضل من عنده بالعطاء والمضاعفة، فهو يقبل اليسير ويعطي الكثير والأجر العظيم مدخر عنده لمن أحسن العمل وهو الفوز برضوانه ودخول جنانه في مقام آمن، مقعد صدق.

﴿٤١﴾ ﴿ فَكَيۡفَ إِذَا جِئۡنَا مِن كُلِّ أُمَّةِۭ بِشَهِيدٖ وَجِئۡنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدٗا ﴾

كيف يكون الأمر وعلى أي حال يكون الخطب إذا جمع الله الأولين والآخرين، وأخذ الشهداء من الأمم يشهدون على أُمَمِهم بالبلاء وبأنهم نصحوهم وعلموهم، ثم يكون على الجميع شاهد واحد هو محمد بن عبدالله ﷺ، إنه لموقف صعب، ومقام رهيب، وحدث هائل، وخبر مرعب، وموقف شديد، ونبأ مذهل، فالواجب أن يُعِدَّ العبد العدة لهذا اليوم العظيم، ويحسن العمل لينجو من تلك الأهوال. ولما قُرِئت عليه ﷺ هذه الآية بكى شفقةً على أمته، ورحمةً للمقصرين منهم.

﴿٤٢﴾ ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ﴾

يوم يحصل هذا اليوم يتمنى الكفار الذين كذبوا الرسول ﷺ ولم يتبعوه لو يجعلهم الله والأرض سواء فيصبحون تراباً حتى لا يعودون إلى الله للحساب يوم القيامة، وهم لا يقدرون إخفاء سرٍّ مما في نفوسهم بل يعترفون بكل شيء إذا ختم الله على أفواههم وتكلمت أيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون في الدنيا.

﴿٤٣﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّىٰ تَغْتَسِلُواْ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

أيها المؤمنون، لا تُصلُّوا وأنتم في حالة السكر، فتهرفون بما لا تعرفون، وتهذون بما لا تعقلون، ولكن امكثوا حتى ينتهي السكر ثم صلوا، وهذا قبل أنْ تُحرم الخمر ويُنهى عنها، ولا تصلوا - أيضًا - وأنتم عليكم الجنابة، بل اغتسلوا قبل ذلك الغسل الشرعي، ومن كان منكم مسافرًا ولم يجد ماءً فيتيمم، ومن كان مريضًا ولا يستطيع استخدام الماء لضرر يحصل له، فعليه بالتيمم بالتراب، والمسافر الذي يقضي حاجته أو يجامع زوجته ولم يجد ماءً فعليه أن يتيمم بالتراب الطيب، وهو الصعيد الذي يطلق عليه تراب، فيمسح وجهه ويديه، وهذا من رحمة الله ومن عفوه ولطفه بهذه الأمة، ومن التيسير بها، ووضع الآصار والأغلال التي كانت على الذين من قبلها؛ ولذلك ختم الله ذلك بأنه عفوٌّ غفور، فهو يعفو عن الخطأ فلا يأخذ به بعد العفو، ويستر الزلة فلا يفضح صاحبها بعد أن يتجاوز عنه، وانظر كيف كنى الله - سبحانه وتعالى - عن الجماع بالملامسة؛ لأنه حيي كريم - جل في علاه -.

﴿٤٤﴾ ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّواْ ٱلسَّبِيلَ ﴾

ألا تتعجب من هؤلاء اليهود الذين أعطاهم الله بعض علم كتابهم من التوراة، وفيه الشهادة برسالة محمد ﷺ وبيان كل شيء، ومع ذلك باعوا الهدى الذي عندهم واستعاضوا مكانه الضلالة والانحراف عن منهج الله، ولم يكفهم الضلال في أنفسهم والغي في قلوبهم حتى سعوا جاهدين لإضلال المسلمين، وإلى صرفهم عن الهداية التي شرفهم الله بها، فهم ضالون في أنفسهم، مضلون لغيرهم لما في قلوبهم من الخبث وما في نفوسهم من المكر والخديعة.

﴿٤٥﴾ ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴾

ولكن الله يعلم مخططات هؤلاء الأعداء، وسوف يكشفها للمؤمنين ويهتك أستارهم، ويفضح أسرارهم حتى يظهر عوارهم، وحسب المؤمنين الله وليًا يمنحهم ما ينفعهم ويتولى شؤونهم ويدبر أمورهم، ويحسن إليهم، وحسبهم ناصرًا يدافع عنهم، وينصرهم ويخذل أعداءهم، وياله من شرف عظيم لهؤلاء المؤمنين أن يكون الله هو الولي والنصير وحده.

﴿٤٦﴾ ﴿ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

فريق من اليهود حرّفوا كلام الله - سبحانه وتعالى - وبدّلوا معانيه وألحدوا في آياته وحملوا الكلام على غير محمله، وإذا أتوا إلى الرسول ﷺ قالوا: سمعنا بآذاننا وعصينا بقلوبنا وأعمالنا؛ زيادة في البهت والمكر والكيد، ويقولون للرسول ﷺ، ﴿وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ﴾ أي: اسمع منا لا سمعت مكروهًا، - هذا في ظاهر الكلام - وهم يقصدون بمكرهم وخبثهم: اسمع لا أسمعك الله، أو ابتلاك الله بالصمم، ويقولون من السفه والجهل: راعنا، فظاهرها انظرنا حتى نتكلم، وباطنها راعنًا من الرعونة، وهي الحمق والسفه، تحريفًا بألسنتهم وخبثًا في قلوبهم، ومكرًا في أعمالهم، ويريدون بذلك الاستهزاء بالرسول ﷺ والدين، وتهوينه عند الناس، ولو أن هؤلاء الكفرة الفجرة

اتبعوا السبيل الأقوم، والمسلك الأحسن لقالوا: سمعنا كلامك وأطعنا أمرك، واسمع منا وأنظرنا، وتمهل علينا، وأخذوا بالألفاظ التي لا تحتمل المحامل السيئة، وليس فيها تشويش، ولا تلبيس ولا تدليس لكان خيرًا لهم في الدنيا نصرًا وتمكينًا، وكان خيرًا لهم في الآخرة من الأجر العظيم والثواب الجليل، ولكن هؤلاء القوم لعنهم الله، والملعون لا يهتدي إلى دليل، ولا يفهم حجةً ولا يفقه دينًا، فإن قلبه مطموس؛ لأنه مطرود عن أماكن الرحمة التي تتنزل عليها بركات الله، فهم لا يؤمنون ومن آمن منهم قليل، كعبد الله بن سلام وربما آمن بعضهم ببعض ما أنزل على محمد ﷺ، وكفر بأكثره.

﴿٤٧﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ ءَامِنُواْ بِمَا نَزَّلۡنَا مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبۡلِ أَن نَّطۡمِسَ وُجُوهٗا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدۡبَارِهَآ أَوۡ نَلۡعَنَهُمۡ كَمَا لَعَنَآ أَصۡحَٰبَ ٱلسَّبۡتِۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ مَفۡعُولًا ﴾

أيها اليهود، صدقوا بمحمد - عليه السلام - فقد أتى بما صدق رسالتكم في التوراة، وما أنزل على موسى، وآمنوا به قبل أن يغضب الله عليكم، فإذا غضب عليكم طمس وجوهكم فمحا محاسنها، وردّها على أقفائها، وطردكم من رحمته كما طرد أجدادكم يوم خالفوا واصطادوا يوم السبت، وأمر الله حاصل لا محالة، وكائن لا شك فيه، ليس له راد إذا أراد، وهذا وعيد وتهديد شديد بمعاجلة اليهود بالعذاب في الدنيا، والنكال في الآخرة.

﴿٤٨﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴾

أخبر - سبحانه وتعالى أن من أشرك به شيئًا، فإنه لا يغفر ذنبه، ولا يدخله الجنة، بل هي محرمة عليه، وهو خالدٌ مخلّدٌ في النار، وكل ذنب دون الشرك عسى أن يغفره الله، فهو تحت مشيئة الله - سبحانه وتعالى - إن شاء غفر، وإن شاء عذب، ومن أشرك به - سبحانه وتعالى - فقد أتى بجرمٍ فظيع، وذنب شنيع، كل ذنب يهون دونه، وكل معصية تخف عنده، فهو أعظم السيئات، وأكبر الخطيئات، وصاحبه موبق في النار، لا تنفعه شفاعة الشافعين، ولا يدافع عنه ولي، ولا ينصره ناصر، ولا تقبل منه فدية، ولا ينفعه عمل، أعاذنا الله من الشرك.

﴿٤٩﴾ ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا ﴾

انظر إلى هؤلاء اليهود كيف يمدحون أنفسهم، ويطهرونها بألسنتهم، ويزعمون أنهم أبناءُ الله وأحباؤه، ويتمدحون عند الناس أنهم شعب الله المختار، وأنهم خير الأمم، وهذا لا يُوكل إليهم، إنما الذي مدحه زين، وذمّه شين، والذي يعود له تزكية العباد ومدحهم والثناء عليهم ثناء حقيقيًا بصدق وعلم وحق هو الله - سبحانه وتعالى -، وهؤلاء لو أن عندهم حسنات لما ظلمهم الله بعدم إثابتهم عليها، والله - سبحانه وتعالى - لا يظلم أحدًا شيئًا، ولو كان بمقدار الخيط الذي في شق النواة، لتنزهه عن الظلم، وأمره بالعدل.

﴿٥٠﴾ ﴿ ٱنظُرۡ كَيۡفَ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَكَفَىٰ بِهِۦٓ إِثۡمٗا مُّبِينًا ﴾

ألا تتعجب من هؤلاء اليهود كيف يجترئون هذه الجرأة في الكذب على الله، والافتراء على دينه ورسله، ويزعمون أنهم خير الأمم، وأنهم أبناء الله، وأنهم أحباؤه، وأنهم لا يعذبون في النار إلا أيامًا معدودة، وأن الله أخذ عليهم العهد والميثاق ألاّ يؤمنوا برسول حتى يأتيهم بقربان تأكله النار، إلى غير ذلك من الافتراءات والكذبات الكبرى، والغدر والفجور، فقاتلهم الله، ألا عَقْلٌ يردعهم؟ ألا يردّهم دين؟ ألا يمنعهم حياء؟ وهذا الكذب الذي يمارسونه ويعملونه كفى به جرمًا بينًا، وخطأً واضحًا، وذنبًا شهيرًا، يستحقون عليه أشد النكال، وأعظم العذاب في دار الخزي والهوان في نار جهنم.

﴿٥١﴾ ﴿ أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡجِبۡتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا ﴾

ألا تتعجب من هؤلاء اليهود الذين أعطيناهم حظًا من علم التوراة، وأرسلنا إليهم رسولاً كريمًا هو موسى عليه السلام، ومع ذلك يؤمنون بالسحر ويعبدون طواغيت من دون الله -عز وجل- ويشركون مع الله غيره، وقام أحد

أحبارهم وهو كعب بن الأشرف فأقسم عند كفار قريش أنهم أحسن طريقةً، وأهدى دينًا من محمد وأصحابه.. فهم أهل الخيانة، وقلة الأمانة، وانحراف عن الديانة، وإيمان بالسحر والكهانة، فابتلاهم الله بالذل والمهانة.

٥٢ ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ ۖ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُ نَصِيرًا ﴾

هؤلاء الذين فعلوا هذه الأفعال الشنيعة والأعمال القبيحة من الكفر بالله والاستهزاء بمحمد ﷺ وأصحابه، والشهادة للكفار على المؤمنين، قد طردهم الله من رحمته وغضب عليهم غضبًا شديدًا، وسَخِط عليهم وأذلهم وأخزاهم، فليس لهم ناصر ينصرهم من دون الله، ولا دافع يدفع عنهم العذاب، ولا ولي يجلب لهم النفع.

٥٣ ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَّا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا ﴾

وهم يدعون أنهم سوف يكون لهم الملك في آخر الزمن كما كان لأسلافهم، فلو كان لهم الملك لو أُعْطُوه - وهم كذبة لن يُعطوه - فسوف يبخلون غاية البخل، ولا يعطون الناس شيئًا من الخير، لأنهم حسدةٌ بخلاء، حتى إنهم يمنعون النقير، وهو الشيء الحقير الذي يشابهه النقرة في ظهر النواة.

٥٤ ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۖ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴾

وهم مع البخل حسدة، فقد حسدوا المؤمنين على ما كَرَّمهم الله وشرّفهم به من إرسال محمد ﷺ، وإنزال القرآن عليه، فلماذا يحسدون عباد الله على كتاب الله ورسوله وقد أنزل الله عليهم - سبحانه وتعالى - الكتب، وأرسل إليهم الرسل، وجعل منهم الأنبياء، فأبو الأنبياء إبراهيم ومن جاء بعده من أبنائه كإسماعيل وإسحاق ويعقوب مصطفون آتاهم الله النبوة والكتاب، ويعقوب هو إسرائيل أبوهم، فكانت فيهم النبوة والرسالة، لو قدروها حق قدرها، وقاموا بها حق القيام، وأحسنوا طاعة الله -عز وجل- وشكره، وآتيناهم ملكًا عظيمًا؛ كملك داود وسليمان، ومع ذلك لم يشكروا الله، بل قتلوا الأنبياء، وكفروا بالرسالة، وألحدوا في الكتاب.

٥٥ ﴿ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُم مَّن صَدَّ عَنْهُ ۚ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا ﴾

من اليهود وهم قلة قليلة من آمن بالرسول ﷺ وصدق بكتابه، وأكثرهم أعرض عن الرسول ﷺ، وكذبوا بما جاء به واستهزؤوا برسالته، فهم جمعوا بين البخل بأموالهم والحسد في أنفسهم والصد عن سبيل الله -عز وجل- والكفر برسالته، وهؤلاء جزاؤهم نارٌ تلظى، تحترق احتراقًا لتشوي وجوههم، وتحرق أجسامهم جزاءً وفاقًا على سوء صنيعهم، وعلى خبث سرائرهم، وعلى كثرة كيدهم ومكرهم.

٥٦ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

الكفار من أهل الكتاب ومن غيرهم من مشركي العرب لهم عند الله - سبحانه وتعالى - نار تحرق أجسامهم، وتشوي جلودهم، كلما أحرقت الجلد وأذهبته - وهو موطن الإيذاء في الجسم والإحساس - أبدل الله مكان الجلد جلدًا؛ ليستمر العذاب ويبقى النكال، فيا سوء حالهم، ويا قبح مآلهم، والله - سبحانه وتعالى - الذي كتب هذا العذاب عليهم عزيز لا يُغالب، متفرّد عن سواه بالألوهية والربوبية، فلا نديد له ولا ضد، وله القوة المطلقة، ثم إنه حكيم لا يُوقع العذاب والعقاب لغير مستحقه، يقع كل شيء منه بحكمة وبعدل.

٥٧ ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴾

أما المؤمنون الصادقون الذين أكثروا من فعل الخيرات واجتناب المنكرات فبشرهم بجنات النعيم، فيها أنهار من ماء وعسل، وخمر ولبن، لا يسمعون فيها لغوا، وهم مع ذلك منعّمون يستمر نعيمهم أبد الآباد، لا يتحوّلون عنه ولا ينقطع

عنهم التكريم، ولا يعتريهم هرم ولا سقم ولا عدم، وهم مع ذلك لهم زوجات مطهرات في الجنة من الأقذار والأدناس، فلا يأتيهم ما يأتي نساء الدنيا من الحيض والنفاس أو نحو ذلك، ومع ذلك يُدْخِل الله - سبحانه وتعالى - المؤمنين الظل الدائم في جنات النعيم، فلا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا، بل هم في مقعد آمن، وعيش رغيد، وحياة سعيدة، وقرة عين، وبهجة نفس، وانشراح صدر.

﴿٥٨﴾ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا﴾

يأمركم الله - أيها المؤمنون - أن تؤدوا الأمانة إلى أهلها، فالأمانة التي بينكم وبين الله من القيام بأمره واجتناب نهيه، والأمانة التي بينكم وبين الناس من أداء الودائع والحقوق المالية، وإنفاذ العقود، والوفاء بالعهود، وعدم نقض الأيمان، وعليكم بالإنصاف والسوية بين الناس إذا أُسند إليكم حكم من قضاء، أو فصل خصومات، أو صلح بين العباد فاتقوا الله في ذلك، فلا يظلم أحدكم ولا يغدر ولا يملّ عن الحق، ووالله إن هذه الوصية من أعظم الوصايا، ومن أجلِّ النصائح، فهي خير في الدنيا والآخرة، وهي رشد وسداد، والذي أمر بها هو الله الواحد الأحد السميع للأقوال، فلا يخفى عليه صوت، والبصير بالأفعال، فلا يعزب عنه علم، والخبير بالأحوال، فلا تخفى عليه خافية -جل في علاه-. ويا من آمن بالله وصدّق رسوله عليكم بطاعة الله -عز وجل- فيما أمر به ونهى عنه، وطاعة الرسول ﷺ باتباع سنته وتحكيم شريعته ظاهرًا وباطنًا، وأطيعوا أولي الأمر في طاعة الله -عز وجل- وهم من يتولى الأحكام وسياسة الأمور، فإذا أطاعوا الله فأطيعوهم، ولا تطيعوهم في معصية الله -عز وجل- فالطاعة لهم إذا كانوا مسلمين مؤمنين بالله يأمرونكم بخير، وإذا اختلفتم في قضية من القضايا، فإن المرد إلى كتاب الله وسنة الرسول ﷺ، فَحَكِّمُوا الشريعة في أنفسكم عند الخلاف، وارضوا بحكم الله وحكم الرسول ﷺ، ففيه غاية الإنصاف، وفيه العدل كل العدل، والحق أجمعه والصدق أوله وآخره، ولا يفعل ذلك من طاعة الله وطاعة الرسول ﷺ وأولي الأمر والرد إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ إلا من خاف الله واتقاه، وأعد للقائه ورجا رحمته وخاف عذابه، وهذه الأمور الحسنة والمسلك الجميل خير في الدنيا من العز والنصر واجتماع الكلمة، وخير عاقبة عند الله -عز وجل- من الأجر الدائم والنعيم المقيم والأجر العظيم.

﴿٥٩﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾

يا أيها المؤمنون بي وبرسولي أطيعوني وأطيعوا الرسول والذين يلون أمركم ويتولون شؤونكم القائمين بالعدل والحق، الحاكمين بشرع الله فإن اختلفتم معهم في أمر من أمور الدين فاعرضوه على كتاب الله وسنة رسوله ففيهما الحكم فيما بينكم، وإنكم إن رددتم ذلك إلى الله ورسوله كنتم مؤمنين بالله واليوم الآخر، وكان ذلك خيرا لكم لأنكم تهتدون به إلى الحق والعدل المرضي ويمنع الخلاف الذي يفضي بكم إلى التنازع والضلال.

﴿٦٠﴾ ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزۡعُمُونَ أَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدۡ أُمِرُوٓاْ أَن يَكۡفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمۡ ضَلَٰلَۢا بَعِيدٗا﴾

ألا تتعجب من هؤلاء المنافقين وهم أخبث من المشركين، وأشد ضلالاً من الكافرين يقولون في الظاهر إنا آمنا بالرسول وما أُنزل إليه وما أُنزل من قبله من الكتب وأرسل من الرسل، ولكن إذا حصلت خصومة ذهبوا إلى رؤساء الكفار، وإلى زعماء الطواغيت الذين يحكمون بغير ما أنزل الله بغيًا منهم، واعتراضًا على شرع الله -عز وجل- كفرًا بما أنزل الله، وهم أصلاً قد أُمروا بالتوحيد، وحُرم عليهم الشرك، وأن يتحاكموا إلى غير الله -عز وجل-، ولكن سوَّل لهم الشيطان فأطاعوه، وناداهم فأجابوه، ودلّهم على الضلالة فاتبعوه، والشيطان يريد بهذا أن يزيدهم غيًّا وبعدًا عن الله، وأن يزيدهم كفرًا به، فهو إمامهم ووليهم.

﴿٦١﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾

وإذا قيل للمنافقين: تعالوا إلى التحاكم إلى كتاب الله وسنة الرسول ﷺ عند الخلاف والخصومات، وجدتهم يعرضون ويكرهون ذلك وينفرون منه لما في قلوبهم من مرض النفاق، والكراهية للشريعة والبغض للدين، فلا يرضون به حُكْمًا، ولا بالله حاكمًا، ولا برسوله مشرعًا؛ خبثًا منهم وعداوة.

﴿٦٢﴾ ﴿ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ﴾

فما هو حالهم إذا أظهر الله ما كتموه وفضح ما أخفوه، ثم عذبهم على فعلهم الشنيع وأمكن منهم المؤمنين، فأنزلوا بهم البأس جزاءً على نفاقهم، بعدها يأتون أذلاء يستترون بالحلف الكاذب، والأيمان الآثمة أنهم ما ذهبوا لطلب التحكيم إلى غير الشريعة إلا على حسن نية، وعلى مقاصد من المصالح ومراعاة لبعض الأحوال والأمور الاجتهادية كذبًا منهم وزورًا.

﴿٦٣﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾

هؤلاء الفجرة الأعداء ما صَدَقُوا فيما قالوا، فالله يعلم أنهم تحاكموا إلى غير الشريعة؛ كراهيةً منهم لها، وبغضًا لحملتها، فعليك بعدم معاقبتهم لمصلحة شرعية، بل عليك بنصحهم وتحذيرهم وزجرهم بكلام يخوّفهم فيما بينك وبينهم، علّهم يرتدعون وينتهون عن أعمالهم القبيحة، وخداعهم الرخيص، فلا سوط ولا سيف، بل كلام مؤثر عنيف.

﴿٦٤﴾ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُوا۟ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾

وما أرسل الله رسولا من رسله إلا ليطيعه المؤمنون في فعل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه بتوفيق من الله، ولو أن المنافقين يوم وقعوا في النفاق ندموا على ما فعلوا، وتابوا مما صنعوا، وأتوا إليك يطلبون المغفرة من الله، ويطلبون منك أن تستغفر لهم ربهم، واستغفرت لهم لغفر الله ذنوبهم، وستر عيوبهم، وتجاوز عن سيئاتهم؛ لأن الله يتوب على من ندم وأقلع وتاب، ويرحم من رجع إليه واستغفره وأناب؛ لأنه يحب التائب من ذنبه النادم على خطئه.

﴿٦٥﴾ ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾

قسمًا بربك - يا محمد - لا يدخل الإيمان قلوبهم صدقًا، ولا يجدون حلاوته حقًا، حتى يرضوا بحكمك فيما اختلفوا فيه، فتقضي بينهم في الخصومة بشرع الله، ثم يسلموا بما حكمت، بلا تبرم ولا ضجر، ويطيعوك منقادين لحكمك سرًا وعلانية.

﴿٦٦﴾ ﴿ وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ أَوِ ٱخْرُجُوا۟ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ ۖ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾

ولو أوجبنا على هؤلاء المنافقين أن يقتلوا أنفسهم كفّارةً لذنوبهم كما كتبنا على اليهود لمّا عبدوا العجل، أو أوجبنا عليهم الخروج من الوطن للهجرة والجهاد، أو تأديبًا وتعزيرًا، لما أطاعنا إلا القليل منهم، أما الغالب منهم فهم عصاة، ولو استجابوا لنا فيما أمرناهم به من طاعة الله ورسوله ﷺ؛ لكان أعظم بركة في الدنيا من النصر والعزة، وفي آخرته من الفوز بجنات النعيم، ولثبت الإيمان في قلوبهم، وذهب النفاق والشك منها.

﴿٦٧﴾ ﴿ وَإِذًا لَّءَاتَيْنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

ولو استجابوا لأمرنا واتبعوا رسولنا ورضوا بحكمه، لوهبنا لهم في الآخرة الثواب الجزيل بسكنى الجنات، ونيل الكرامات ورفع الدرجات.

﴿٦٨﴾ ﴿ وَلَهَدَيْنَٰهُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾

ومن نتائج طاعتهم لنا ولرسولنا - لو فعلوا - تثبيتهم على الصراط المستقيم، وزيادة الهدى على الدين القويم الذي يوصلهم إلى رضوان الملك الكريم والنعيم المقيم.

﴿٦٩﴾ ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾

من يمتثل أمر الله وأمر رسوله ﷺ فمصيره الجنات العالية مع النبيين الأصفياء، والصديقين الأوفياء، والشهداء الشرفاء، والصالحين الأولياء، وأنعم بتلك الصحبة، وأعظم بتلك الرفقة، فيا سعادة من كان معهم، ويا قرة عين من صاحبهم، ويا بهجة روح من رافقهم.

﴿٧٠﴾ ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴾

هذا العطاء المبارك والتكريم العظيم والفضل الواسع من الله وحده منّةً منه على عباده المصطفين، وأوليائه المخلصين، وحسبك بالله عليمًا بمن يستحق التكريم ويستأهل النعيم.

﴿٧١﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا ﴾

أيها المؤمنون: تحفظوا واحترسوا من أعدائكم الكفار، وخذوا العدة واخرجوا لقتالهم كتيبةً كتيبة، أو جيشًا قويًّا مهابًا، ولا ينفرد الواحد منكم أو يبقى بلا سلاح، وفي هذا الأخذ بالأسباب، والجمع بين التوكل والاستعداد، وأخذ الحيطة والحذر من العدو.

﴿٧٢﴾ ﴿ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾

فيكم - أيها المؤمنون - بعض المندسين من المنافقين يتثاقل عن الجهاد في سبيل الله لنفاقه، فإذا غُلبتم أو قُتلتم عدها كرامةً له من الله أن الله سلّمه بالتخلف عنكم، وسرّه أنه لم يكن شهيدًا أي: حاضرًا تلك الغزوة التي أصبتم فيها.

﴿٧٣﴾ ﴿ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُۢنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

وإذا حصل لكم النصر والغنائم تأسف هذا المنافق على تخلّفه، فأتى يطالب بنصيبه من الدنيا، ويستعطف المؤمنين ويذكرهم بالصلة والمودة والقربى التي تربطه بهم، ويتلهف ويدعو يا ليتني حضرت المعركة وأدركت قسمي من الغنيمة، فالدنيا همه، والمال مطلبه، نسي الله وما أعدّ لعباده الصادقين فتبًّا له.

﴿٧٤﴾ ﴿ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

فإذا أعرض المنافقون عن الجهاد، فليجاهد أولياء الله أهل الإيمان أعداءه الكفار؛ لأن المؤمنين الصادقين باعوا الحياة الدنيا واشتروا الجنة، ومن يجاهد لتكون كلمة الله هي العليا فيُقتل، فله الشهادة عند ربه، وإن انتصر على الأعداء فله العزة والرفعة والسؤدد، فهو بين نصر عاجل، وثواب آجل، ظفر في الدنيا ونعيم في الآخرة.

﴿٧٥﴾ ﴿ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴾

ماذا يمنعكم من الجهاد في سبيل الله وفي سبيل فك إخوانكم المستضعفين من الأسر والقهر والعذاب الذي يلقونه من كفار مكة، وهم شيوخ ضعفاء، ونساء وأطفال يدعون ربهم ليل نهار، أن ينجيهم من كفار مكة، ويخرجهم سالمين

غانمين، ويسألونه أن يهيئ لهم وليًا يحميهم، وناصرًا ينصرهم على الأعداء، فتولاهم الله ونصرهم وهيأ لهم رسول الهدى ﷺ الذي فتح مكة، ونصرهم وقمع الكفر وأهله.

﴿٧٦﴾ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا﴾

من صفة المؤمنين أنهم يجاهدون لتكون كلمة الله هي العليا، ومن صفات الكافرين أنهم يجاهدون في سبيل الشيطان والطغيان والأوثان، فيا أيها المؤمنون، جاهدوا الكفر وأهله، والشيطان وحزبه؛ لأن كيدهم ضعيف، وركنهم منهار، وأمرهم إلى خسار، فكل محارب لله وحزبه ذليل مهزوم مقهور.

﴿٧٧﴾ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾

ألا تعجب من أناس من المسلمين نهوا عن قتال الكفار بمكة، وأُمروا بالاشتغال بتزكية النفوس وتربية الروح من صلاة وزكاة، فلما هاجروا وأُمروا بقتال الكفار تغير حالهم وخافوا وجَبُنُوا وأحبوا الحياة، وصار خوفهم من الكفار كخوفهم من الملك الجبار أو أكثر خوفًا منه؛ لشدة حبهم لهذه الدار، وأخذوا يقولون من شدة الفزع: يا ربنا ودِدْنا أنك ما كتبت علينا القتال لنموت بالآجال، فأخبرهم - يا محمد - أن الدنيا عمرها قصير، وزادها حقير، نعيم زائل، وظل مائل، أما الآخرة فهي خيرٌ وأبقى للأتقى، فهي مقعد صدق، ومقام آمن، ودار رضوان، وقرة عين، وبهجة نفس، وأعمالكم محفوظة لكم لتنالوا عليها الجزاء، ولا تُزَادوا في السيئات ذرة، ولا تنقصوا من الحسنات فتيلا، وهي شق نواة التمر، فما دام أن السعي محفوظ لمن سعى، والعمل مدّخر لمن عمل فأكثروا من الإحسان ليثقل الميزان.

﴿٧٨﴾ ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾

مهما فَرَرْتم من الموت فإنه سوف يصل إليكم ويلحقكم ولو سكنتم في أبراج عالية مقفلة محصّنة لدخل عليكم، وقبض أرواحكم هناك، فلا حيلة تنجي من الموت، ولا دواء يصرفه عن الإنسان، ثم أخبر أن المنافقين إذا وجدوا خيرًا في حياتهم من أبناء وأموال وانتصارات وغنائم قالوا: هذا مما عند الله لنا من المنزلة العالية، فهو يختصنا بهذه، وإذا وقعت عليهم مصائب الموت والمرض والفقر والهزائم ونحوها قالوا: هذا من شؤم رسالة محمد، فنحن لما اتَّبَعْناه أصابنا هذا البلاء، فأمره أن يقول لهم: كل هذا -أيها الجهلاء- بقضاء من الله مكتوب، وتقدير سابق سواء كان خيرًا أو شرًا، فما لهؤلاء لا يكادون يفقهون معاني الدين، وأسرار التشريع؟ فالمنافق قليل الفقه في الدين، سقيم الفهم في شرع رب العالمين.

﴿٧٩﴾ ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ۚ وَأَرْسَلْنَٰكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾

أيها العبد، كل نعمة أصابتك فبقضاء وقدر من ربك، وكل بلاء فبسبب ذنوبك، مع العلم أنها كلها بقدر من الله، وكل طاعة فبتوفيق الله، وكل معصية فبكسب من العبد، ثم أخبر الله أن رسالة محمد ﷺ عالمية لكل الأمم والخليقة كافة، لا تختص قومًا عن قوم، ويكفي أن الله شاهد على صحة نبوته وعموم رسالته.

﴿٨٠﴾ ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾

من امتثل أمر الرسول فقد امتثل أمر الله؛ لأن محمدًا ﷺ مُبلِّغ عن ربه كل الأوامر والنواهي، ومن كذب بالرسول ﷺ فالله هو الذي يحصي أعماله ويحاسبه عليها، وليس الرسول؛ لأن الرسول مبلغ عن الله، والجزاء من ثواب وعقاب على الله.

﴿٨١﴾ ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا۟ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴾

المنافقون إذا كانوا حضورًا في مجلسك قالوا خداعًا وغشًا: سوف نطيعك يا محمد فيما أمرتنا به، فإذا غابوا عنك عزم أناس منهم على معصيتك، وصمموا على مخالفتك، والله يحصي ما فعلوا ويطلع على ما دبّروا؛ ليحاسبهم بما صنعوا، فاترك معاقبتهم فسوف يكفيك الله الانتقام منهم، وكفى بالله وكيلا لمن اعتمد عليه وتوكل عليه وفوّض الأمر إليه.

﴿٨٢﴾ ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾

ما لهم لا يتفكرون في هذا الكتاب المعجز، وهذا القرآن العجيب المذهل؛ ليروا ما فيه من أسرار تدهش العقل، ومن حِكمٍ تأخذ القلب، ولو أن القرآن تكلم به غير الله من المخلوقين القاصرين لوُجد فيه التناقض والخلل في تركيبه، والاضطراب في معانيه، لكنه محكم متناسق؛ وهذا برهان أنه كلام الرحمن.

﴿٨٣﴾ ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

وإذا سمع المنافقون بخبر من الأخبار المهمة من مسائل النصر والهزيمة، والخير والشر التي ينبغي إلاّ يطلع عليها إلا الخاصة، قام هؤلاء المنافقون بإشاعته في الناس، ونشره في العامة، وهذا فيه إفشاء لأسرار المسلمين، وضرر كبير عليهم، ولو أن المنافقين فوّضوا هذه الأسرار إلى الرسول ﷺ وأعيان المسلمين لفهم هذه الأسرار أهل الفقه في الدين والبصيرة في الشريعة، وليس الدهماء الجهلاء، ولا العامة البسطاء، ولبقيت أمور الخاصة سرًا للمصلحة الكبرى، ليتولّى الأمور أهلها، ولا يدخل من ليس أهلاً في القضايا الخطرة، ولولا أن الله تفضّل عليكم بإرسال محمد ﷺ يرشدكم إلى طريق الهدى، ويحذركم من سبيل الرّدى لأطعتم إبليس فيما يأمركم به من غواية ويوسوس لكم به من ذنوب، ويدعوكم إلى الفحشاء، ولكان كثيرون منكم انساقوا وراءه إلا القليل من أهل التقوى والإيمان والاعتصام بشريعة الرحمن، ففضل الله تسديده لكم إلى الصواب، ورحمته حمايتكم من الضلال وغفران ما يحصل من تقصير.

﴿٨٤﴾ ﴿ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴾

فجاهد ولو وحدك - أيها الرسول -، ولا تهتم لمن أبى الجهاد، واخرج بنفسك وتوكل على الله، فالله معك وهو حسبك، وسوف ينصرك ولو وقف في وجهك أهل الأرض، وما عليك من ترك المنافقين للجهاد معك، فأنت منصور والعاقبة لك، ولا يمنعك ذلك أن تحث المؤمنين على الجهاد لكسب الأجر والفوز بالنصر، وكسب الشهادة ورضوان الله، وسوف يكسر الله قوة الباطل وأهله، ويفل حدهم، ويخزيهم وينزل الهزيمة بهم؛ لأن الله أشد منهم أخذًا، وأقوى جندًا، وأعز جانبًا، وهو قادر على تعذيبهم والتنكيل بهم وإنزال أقسى العقوبات وأفظع العذاب بهم.

﴿٨٥﴾ ﴿ مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقِيتًا ﴾

من يسع في عمل الخير ويكون سببًا لحصوله من نفع ضعيف، وإيصال الحق لمستحق، وعون مسكين، والوقوف مع مظلوم، فله حصة عظيمة من الثواب على فعله الحسن، ومسعاه الحميد، ووساطته الفاضلة، وبالضد، من يسعى في باطل، ومنع حق، وحجب خير، وتعطيل حد، وإنزال ظلمٍ ببريء، فله قسم وافر من الوزر، وقسط عظيم من الإثم، والله -عز وجل- قدير على ما أراد، حسيب على كل نفس، مقدر كل أمر، يجازي كلاً بعمله، فصاحب الخير بأجره، وصاحب الشر بوزره بعدل وعلم وحكمة.

٨٦ ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴾

إذا سُلِّم عليكم فسلموا، فالواجب رد التحية، والأفضل الزيادة عليها، فعليكم السلام لمن قال: السلام عليكم، ومثل: وعليكم السلام ورحمة الله أفضل، فالمحسن مشكور، والمقتصد مأجور، والمقصر مأزور، والله سوف يحاسب العباد على أقوالهم وأعمالهم لا تغيب عنه ذرة، ولا تند عن علمه همسة، وسع كل معلوم علمًا، وكل مسموع سمعًا، ووسع الخلق رحمة، والكون حكمة، والخلق فضلاً ونعمة.

٨٧ ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۗ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴾

قسمًا بمن لا إله إلا هو ولا معبود بحق سواه ولا يستحق الألوهية غيره، ليجمعنكم ربكم للعرض الأكبر، والموقف العظيم يوم البعث والنشور، ليجازي كلاً بما فعل، ويحاسب كل إنسان بما صنع، ولا شك في ذلك الجمع، فهو واقع لا محالة، كائن لا ريب فيه، فلا أحد أصدق من الله ولا أوفى بوعد من الله، ولا أنجز لما وعد من الله، فقوله فصل، وعطاؤه فضل، وعذابه عدل، وهو لكل خير أهل.

٨٨ ﴿ فَمَا لَكُمْ فِى ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓا۟ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُوا۟ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴾

ما لكم - أيها المؤمنون - في أمر المنافقين انقسمتم إلى طائفتين، طائفة تقول: إنهم مؤمنون، وطائفة ترى كفرهم وقد خذلهم الله وأوبقهم في الكفر وردهم الله على أعقابهم؛ لأنهم أبطنوا الكفر، وسلكوا مسالك الشيطان، هل تريدون أن تهدوا من كتب الله عليه الغواية، وأن ترشدوا من أدركه الخذلان، وباء بالخسران، وعاد بالخيبة؟ فإن من كتب الله عليه الشقاء، وقضى عليه بالضلال فلا حيلة في صلاحه، ولا وسيلة لهدايته، فقد عميت بصيرته، وانطفأ نوره.

٨٩ ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً فَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ أَوْلِيَآءَ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ ۖ وَلَا تَتَّخِذُوا۟ مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

يريد هؤلاء المنافقون بكل وسيلة أن ترتدوا عن دينكم فتكونوا على مثل حالتهم من الكفر فَتُسَاووهم في النفاق، فإيّاكم أن تَوَادُّوهم وتصادقوهم وتثقوا بهم إلا إذا هاجروا معكم، وجاهدوا في سبيل الله، وتابعوا رسول الله ﷺ، فإن أبوا إلا الكفر واختاروا النفاق، ورفضوا الإيمان، فاقتلوهم في كل زمان، في حلٍ وحرم، ولا تركنوا إليهم، ولا تصدقوهم ولا تستعينوا بهم في أمر، فهم العدو فاحذروهم، ولا تنخدعوا بظاهرهم، ولا يغركم كلامهم اللين ومسالمتهم في الظاهر، فالخبث مستقر في قلوبهم، والكفر كامن في نفوسهم.

٩٠ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ أَوْ جَآءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَٰتِلُوكُمْ أَوْ يُقَٰتِلُوا۟ قَوْمَهُمْ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ ۚ فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴾

إلا الذين يذهبون إلى قومٍ عاهدوكم ودخلوا معهم في عقد الأمان، فلا تحاربوهم؛ لأنهم تحت ولاية الكفار المعاهدين، أو أناس احتاروا ووقعوا في حرج شديد، وضيق كثير، فلا يستطيعون القتال معكم ضد قومهم، ولا القتال مع قومهم ضدكم، والله قادر أن يحوّل نيّاتهم فيقاتلوكم، فما دام أنهم مسالمون، وتركوا مقاتلتكم، وأظهروا لكم الأمن من جانبهم، فليس لكم طريق عليهم ولا حق في مقاتلتهم ولا رخصة في ذلك.

٩١ ﴿ سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا۟ قَوْمَهُمْ ۖ كُلَّ مَا رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا۟ فِيهَا ۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓا۟ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓا۟ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴾

أما قسمٌ آخر من المنافقين فهم مخادعون يظهرون لكم الإسلام طلبًا للمسالمة، فإذا رجعوا إلى قومهم أعانوهم وأظهروا أنهم معهم عليكم، كلما طلب منهم محاربة المسلمين أوغلوا في ذلك وجدّوا، وقَلَبَ الله قلوبهم، فاستمروا في

الفتنة، فإذا لم يجتنبوكم ويتركوا التعرض لكم، ويعلنوا الاستسلام، ففي أي مكان لقيتموهم فعليكم بقتلهم قتلاً ذريعًا، وحصدهم بالسيف حصدًا، ولكم العذر الواضح في قتلهم، والدليل الساطع في الفتك بهم؛ لأنهم خانوكم وغدروا بكم، وسلكوا النفاق معكم، وهم من أشد الأعداء لكم، فالمنافقون أقسام ثلاثة: قسم مسالم واعتزل القتال فلا يتعرض له، وقسم دخل مع أهل عهد من الكفر وهو مقهور تحت رئاستهم فيُترك قتاله، وقسمٌ لعب على الحبال واستخدم المخادعة والاحتيال مرةً معكم ومرةً مع الأعداء المحاربين عليكم؛ فهؤلاء يُقاتلون.

﴿٩٢﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا ۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا۟ ۚ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَـٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

لا يحق للمؤمن ولا يجوز له أن يقتل مؤمنًا آخر معصوم الدم؛ لأن الإيمان يمنعه أن يفعل ذلك، ولكن من فعل ذلك عن طريق الخطأ وعدم التعمد والقصد، فإن عليه أن يحرر رقبة ليخرجها من ذل الرق، فتحريرها كإحيائها، وعليه أن يدفع ديةً إلى أهل القتيل إلا إذا عفا أهل المقتول عن الدية، فإنها تسقط، فإذا كان المقتول من الكفار المحاربين وهو مؤمن فإن على القاتل تحرير رقبة مؤمنة فحسب، ولا يُعطَون دية؛ لأنهم كفار محاربون يستعينون بها على قتال المسلمين، وإذا كان المقتول من الكفار ولكن بينهم وبين المسلمين عهد وميثاق، فإن على القاتل مع تحرير الرقبة المؤمنة أن يسلم الدية لهم للعهد الذي بينهم وبين المسلمين، فإذا لم يجد القاتل ما يحرر به رقبة فإن عليه أن يصوم شهرين متتابعين يهذب بهذا الصوم نفسه وتكون له تأديبًا وردعًا، وهو مع انكساره واستغفاره يتوب الله - سبحانه وتعالى - عليه، والله -عز وجل- عليم بما أسر العباد، فهو مطلع على أعمالهم، حكيمٌ فيما شرعه من تحرير رقبة، ومن الدية ومن تقسيم هذه الأنواع وترتيب هذه المنازل؛ حكمةً منه ولطفًا لا إله إلا هو.

﴿٩٣﴾ ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَـٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾

والذي يتعمد قتل مؤمن معصوم الدم، فإن جزاءه أن يخلده الله في نار جهنم، ويبوء بغضب من الله - سبحانه وتعالى - على سوء ما فعل وعلى جُرم ما صنع، وعلى فداحة ما ارتكب، وعليه لعنة الله فيطرده من رحمته ويحرمه عفوه ورضوانه، وهيأ له - سبحانه وتعالى - من النكال العظيم والجزاء الوخيم ما يستحقه على فعلته الشنعاء؛ لأنه قتل نفسًا معصومة، وفي الحديث: «**لزوال الدنيا أهون عند الله من قتل رجل مسلم**».

﴿٩٤﴾ ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَـٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا ۚ تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

أيها المؤمنون، إذا خرجتم للجهاد في سبيل الله فعليكم بالتحري فيمن تقاتلونه، وعليكم بالتثبت والتبين، ولا تقولوا لكل من سلَّم عليكم إنّ قصده المخادعة، وقصده المجاملة لتكسبوا من ورائه غنيمة من الدنيا، تأخذون سلاحه أو ماله، فإن الذي أعدّه الله - سبحانه وتعالى - لكم في الآخرة من الأجر العظيم والثواب الجزيل والمقام الدائم في الجنة خير من عرض الدنيا كلها، وتذكروا أنكم كنتم بهذه الحال قبل أن تسلموا يوم كنتم كفارًا، فاحمدوا الله على الهداية، وقيسوا حال هذا الرجل بحالكم من قبل، فإن هذا يحملكم على التثبت وعلى التبين، ومن خالف أمر الله - عز وجل - وعصاه فإن الله خبير بصنيعه، مطلع على فعله، وسوف يحاسبه - سبحانه وتعالى - على مخالفته لأمره الشرعي.

﴿٩٥﴾ ﴿ لَّا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

ولا يمكن أن يستوي في الأجر والمثوبة من قعد من المؤمنين غير أهل الأعذار؛ كالأعمى والأعرج والمريض، فإن الله عذرهم، لكن من يقعد عن الجهاد بلا عذر لا يستوي ومن جاهد في سبيل الله، فأنفق ماله وقدّم نفسه رخيصةً لطلب رضوان الله، فهذا أعظم أجرًا بلا شك وأرفع منزلةً وأكبر رتبةً، والله - سبحانه وتعالى - فضل المجاهدين في سبيله بأموالهم وأنفسهم على الذين قعدوا بعذر درجةً من الثواب؛ لأنهم جاهدوا وأولئك لهم عذر قعدوا به، وكلٌّ موعود بالحسنى سواء من قعد بعذر لصدق نيته وإخلاصه وتمنيه الجهاد، ومن خرج لتضحيته وبذله نفسه وماله، ولكن الله - سبحانه وتعالى - فضّل المجاهد على القاعد بلا عذر أجرًا عظيمًا وثوابًا كبيرًا وكرمًا واسعًا، فإن الله يرفع المجاهد مئة درجة كما صح في الحديث، كل درجة ما بين السماء والأرض.

﴿٩٦﴾ ﴿ دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

وهذه الدرجات وذلك الغفران والرحمة من الله - سبحانه وتعالى - إكرامًا للمجاهدين فرفعة الدرجات لما بذلوه من الأموال والأنفس في سبيل الله، والمغفرة لما صار من ذنوبهم، فإن الشهيد تُغفر له ذنوبه عند أول قطرة من دمه، ورحمة يتغمده الله بها - سبحانه وتعالى - فينسيه كل هم وكل غم وحزن مرّ به، والله - سبحانه وتعالى - يغفر الذنوب العظيمة؛ لحلمه وعفوه وصفحه، وهو رحيم بمن أقبل من عباده وطلب رحمته.

﴿٩٧﴾ ﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾

والذين يموتون وتتوفاهم الملائكة من المؤمنين وقد ظلموا أنفسهم ببقائهم تحت راية الكفر، وفي ديار الشرك ولم يهاجروا لديار الإسلام تسألهم الملائكة عند الموت، لماذا لم تهاجروا بدينكم؟ فقالوا: إنا كنا مقهورين تحت راية الكفار، فتقول لهم الملائكة: أليست أرض الله واسعة رحبة يمكن أن تنتقلوا إليها فتظهروا شعائر الدين وتعبدوا رب العالمين؟ فالذين لا يهاجرون ويبقون وهم مستطيعوا الهجرة، فأولئك مقرهم نار جهنم؛ لأنهم رضوا بقهر الكافر وقد جعل الله لهم فسحةً في الأرض ولم يفعلوا، وكان لهم خيار ولم يقبلوا، فبئس والله مردهم، وبئس مقرهم في ذلك المقام المخزي في نار جهنم.

﴿٩٨﴾ ﴿ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴾

لكن الذين لا يستطيعون الهجرة وهم مستضعفون حقًا من الشيوخ الكبار والنساء الضعيفات والأطفال، فهؤلاء ليس لهم حيلةٌ في الفرار، وليس لهم نفقة يستطيعون الذهاب بها، وليست لهم قدرةٌ جسمية ولا معنوية ليهاجروا إلى بلاد الإسلام، هؤلاء حقًا معذورون عند الله سبحانه وتعالى.

﴿٩٩﴾ ﴿ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾

فهؤلاء الضعفاء من الشيوخ والنساء والأطفال، الله - سبحانه وتعالى - يتجاوز عنهم ويغفر لهم تركهم للهجرة؛ لأنهم معذورون ولا يستطيعون الخروج من ديارهم، والله -عز وجل- يحب الصفح عن عباده ويتجاوز عن سيئات من عاد إليه، وهو - سبحانه وتعالى - يغفر الذنوب مهما عظمت لمن استغفره وأناب إليه، ولا يتعاظمه شيء أن يغفر لمن صدق في الإقبال عليه.

﴿١٠٠﴾ ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

والذي يخرج مهاجرًا في سبيل الله من ديار الكفر إلى دار الإسلام يحصل على ما يُرغم به أنوف الكفار ويغيظهم بإذن الله من التفافهم على المؤمنين وإظهار شرائع الدين، وأرض الله - سبحانه وتعالى - واسعة لمن خرج يبحث عن بقعة يعبد الله فيها، والذي يخرج إلى بلاد الإسلام ونيته صادقة وفي أثناء الطريق يموت ولم يصل إلى بلاد الإسلام فأجره على الله ثابت، وثوابه واقع بلا شك، والله يأجره على فعله، وهو غفور يغفر ذنوب العباد إذا عادوا إليه، ويستر عيوبهم، وهو - سبحانه وتعالى - رحيم، رحمته واسعة، وفضله عظيم وخيره عميم.

﴿١٠١﴾ ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾

وإذا خرجتم للجهاد في سبيل الله، أو طلب رزق من التجارة ونحوها فليس عليكم حرج أن تقصروا الصلاة رخصةً من الله -عز وجل- فاقبلوا رخصته، فاجعلوا الرباعية ركعتين عند الخوف من الكفار، و - أيضًا - حتى لو لم يحصل خوف كما نص على ذلك رسول الهدى ﷺ فإنه قال: «**صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته**»؛ لأن الكفار أعداء لكم، وجهادهم واجب باليد واللسان والقلم والنية، وبكل وسيلة يمكن أن تضرهم، وهذه عداوة أبدية حتى يدخلوا في دينكم، وعداوتهم حق يُؤجر عليه العبد.

﴿١٠٢﴾ ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾

يخبر سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عن صلاة الخوف أنه إذا كان مع المؤمنين المقاتلين في سبيل الله وأراد أن يصلي بهم فليجعلهم قسمين، القسم الأول يصلون مع الرسول ﷺ وهم يلبسون السلاح، والقسم الآخر يقف في وجه العدو، فإذا انتهى القسم الأول من الصلاة فليأت القسم الثاني إذا لم يصل فليصل مكان القسم الأول، وليكونوا متهيئين متجهزين حذرين من الكفار لابسين سلاحهم؛ لأن الكفار يريدون أن ينشغل المسلمون عن سلاحهم وعن أمتعتهم فيقتلوهم على حيلة وعلى خدعة، ويثبون عليهم وثبةً واحدة، وهم في حالة الانشغال بالصلاة، ولا ذنب ولا إثم على المؤمنين إذا كانوا مرضى أو في السفر ألا يحملوا السلاح في الصلاة، وليكونوا على أُهبة الاستعداد، وأتم الانتباه من العدو مهما استطاعوا إلى ذلك، والله - سبحانه وتعالى - قد أعد وهيأ للكفار من عذاب الخزي والمهانة والذلة والصغار من اللعنة والغضب والنار ما الله به عليم جزاءً وفاقًا لأفعالهم.

﴿١٠٣﴾ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا اطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ۚ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾

وإذا انتهيتم من الصلاة - أيها المؤمنون - فعليكم بالإكثار من ذكره - سبحانه وتعالى - في قعودكم وفي قيامكم، في أعمالكم، وفي أشغالكم وفي طرقاتكم وفي سفركم، وعليكم بكثرة ذكره وأنتم قعود في مجالسكم ومدارسكم واجتماعاتكم، على جنوبكم مضطجعين، وهذا لأهمية الذكر وفضله وعظيم أجره، فإذا ذهب الخوف عنكم من الكفار فعليكم بإقامة الصلاة كما هي تامةً بعددها وخشوعها وركوعها وسجودها وآدابها وسننها؛ لأن الصلاة فريضة محددة لوقت معلوم وزمن معيَّن، لا يجوز أن تؤخر حتى يخرج وقتها، ولا يحذف من ركعاتها إلا بعذر كالسفر والحرب، وهذه الصلاة هي عمود الإسلام، وهي الركن الأهم بعد الشهادتين.

﴿١٠٤﴾ ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِى ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

ولا يصبكم الوهن والخور والإحباط في طلب منازلة الكفار وفي مواجهتهم، فإنكم إذا كنتم تتألمون وتتضررون فإنهم - أيضًا - بشَرٌ مثلكم ينالهم الألم والضرر، لكن الفارق أنكم ترجون من الله ثوابًا جزيلاً وأجرًا جميلاً ومنقلبًا طيبًا، وهم ليست لهم ولاية عند الله وقد عادوه وحاربوه، وهم لا يرجون ثوابه - سبحانه وتعالى - ولا ينتظرون خيرًا عنده - جل في علاه - والله - سبحانه وتعالى - عليم بمن صدق في نيته وفي جهاد عدوه، وفي الإخلاص لطلب مرضاته، حكيم في أوامره فهو - سبحانه وتعالى - أنزلها بحكمة وعدل، وببصيرة وبلطف تُناسب الأحوال والأزمات والمقامات.

﴿١٠٥﴾ ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾

يا أيها الرسول، نحن نزلنا عليك القرآن ينطق بالحق ويحكم بالعدل لتقيم شريعة الله - سبحانه وتعالى - بين عباده، وتجتهد في النص بما فقهك - سبحانه وتعالى - في دينه، فتحكم بين الناس بالعدل، واحذر أن تدافع عن الخونة أو تكون مجادلاً عنهم.

﴿١٠٦﴾ ﴿ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

وعليك أن تستغفر ربك إن كنت هممت أن تدافع عن خائن أو تجادل عن منافق، فإن الله - سبحانه وتعالى - يتجاوز عن خطئك، ويغفر لك ويرحمك وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. وفيه أن من وقع منه مثل هذه النية فعليه أن يستغفر ربه ويتوب إليه -جل في علاه -.

﴿١٠٧﴾ ﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾

وإياك أن تدافع عن الخونة الذين يرتكبون الخيانة ثم يضيفونها إلى أبرياء ويتهمون بها المخلصين، فهؤلاء أجرموا في حق أنفسهم ثم نسبوها إلى غيرهم لزيادة مكرهم وخديعتهم، والله - سبحانه وتعالى - لا يحب ناقض العهد، ناكث الميثاق، المرتكب للمعاصي والآثام، المدمن الخطايا بلا توبة، السريع في انتهاك حدود الله، الذي لا يرده عن الذنب رد، ولا يحده عن المعصية حد، فهؤلاء سوف يعودون بغضب الله ومقته، وهذه الآية نزلت في قوم من المنافقين سرقوا، ثم نسبوا السرقة إلى غيرهم من الأبرياء، فدافع النبي ﷺ عنهم بناء على ظاهر حالهم، فأنزل الله هذه الآية.

﴿١٠٨﴾ ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾

هؤلاء المنافقون يستترون من العباد ولا يستترون من رب العباد، ويستحون من الخلق ولا يستحون من الخالق، يخافون عقاب الناس ولا يخافون عقاب رب الناس، الذي لا تخفى عليه خافية، ولا تغيب عنه غائبة، وهو الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، والله - سبحانه وتعالى - مطلع على ما في السرائر، عالم بما في الضمائر، وهؤلاء كانوا، يدبرون في ليلهم من السرقة والتخطيط للجريمة والتشاور في أن ينسبوا هذا الفعل إلى غيرهم من الأبرياء، والله لا يرضى هذه الأقوال والأعمال، وهو - سبحانه وتعالى - عالم بما اقترفوه، سامع لما قالوه، مطلع على ما دبّروه، سوف يحاسبهم به، ويجازيهم بسوء صنيعهم.

﴿١٠٩﴾ ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾

أما أنتم يا أقارب هؤلاء المنافقين فعلى فرض أنكم دافعتم عنهم في هذه الحياة عند الحاكم وحاولتم صرف العقوبة عنهم، لكن من يدافع عنهم عند الله؟ ومن يحامي لهم عند الواحد الأحد الذي لا تغيب عنه غائبة، والذي يطلع على الأمور؟ ومن الذي يقف معهم يوم العرض الأكبر؟ ومن الذي ينجيهم من تلك المقامات الهائلة؟ أو من الذي يمكن أن يصرف عنهم العذاب، أو يدفع عنهم العقاب؟ لا أحد، وهذا وعد شديد لكل قاضٍ وكل مدافع وكل محامٍ وكل مسؤول أن يراقب ربه - سبحانه وتعالى - ولا يكون مدافعًا ولا وكيلاً للظلمة وأعداء الله - عز وجل - الفسقة.

﴿١١٠﴾ ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

ولكن المسلم إذا وقع منه السوء أو ظلم نفسه بارتكاب معصية، ثم ندم واستغفر وأناب وتأسف على ما فعل وعاد إلى ربه يطلبه الغفران يجد ربه كريمًا، فإن الله أكرم من العبد، رحيم يتجاوز عنه ويقابل الإساءة بالإحسان، والمعصية بالغفران، ويتغمده بالرضوان، ويسكنه الجنان، فلا أحسن من التوبة إلى الله، ولا من استغفاره جل في علاه.

﴿١١١﴾ ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾

والذي يفعل جريمة أو يمارس خطيئة أو يفعل معصية فإثمها عليه لا على غيره، فلا تزر وازرة وزر أخرى، وهو مسؤول عن فعله، والله - سبحانه وتعالى - يعاقبه وحده؛ لأنه هو الذي اقترف وأخطأ، والله - سبحانه وتعالى - من علمه وحكمته لا يوقع العقاب بغير مستحقه، - أيضًا - لا يضيف على المخطئ سيئات لم يعملها، بل كل شيء بعلم وحكمة، فالعلم إحاطة بكل ما يقع، والحكمة إيقاع العذاب بمن هو أهل له بقدر جرمه.

﴿١١٢﴾ ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾

والذي يعمل ذنبًا صغيرًا أو جرمًا كبيرًا، ثم ينسبه إلى غيره من الأبرياء، فقد أخطأ خطأً بينًا، وتحمَّل إثمًا عظيمًا؛ لأنه فعل جريمتين: أجرم في حق نفسه، وأجرم في حق غيره، وذنبه واضح، وإثمه عظيم، وجرمه جسيم، وسوف يعاقبه الله على سوء تصرفه.

﴿١١٣﴾ ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

ولولا أن الله - سبحانه وتعالى - تفضل عليك - أيها النبي - ورحمك لأراد بعض القوم أن يصرفك عن معرفة الحق، ويوهمك بأن صاحب الذنب هو البريء، ويريدون أن يلبسوا عليك الحكم الشرعي، ولكن الله - سبحانه وتعالى - عصمك من ذلك بالنبوة، وأعلمك من علم الغيب ما كشف لك المخبوء، وهؤلاء الذي يسعون في الضلال والإضلال إنما يضلون أنفسهم، فهم لن يضلوك؛ لأنك نبي مجتبى، ورسول مصطفى، معك العصمة والنبوة، وقد أكرمك الله بالقرآن الكريم والسنة النبوية، وكشف لك من العلوم الغيبية والأسرار الدينيّة والأحكام الشرعية ما جعل فضله عليك دائمًا وكبيرًا وعظيمًا؛ لأن المنزلة التي وصلت إليها لم يبلغها أحد من الناس، وذلك من فضل الله ورحمته عليك.

﴿١١٤﴾ ﴿ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾

أكثر الناس لا خير في كثير مما يسرونه ويتحدثون به بينهم، لكن من تحدث وأمر بصدقة في سبيل الله -عز وجل- أو قال خيرًا ينفع نفسه وينفع غيره، أو أصلح بين المتخاصمين من المسلمين، وأراد بذلك وجه الله - عز وجل - فالله سوف يأجره الأجر العظيم، وسوف يدّخر له الثواب الجزيل على حسن فعله وعظيم أثره.

﴿١١٥﴾ ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾

والذي يخالف الرسول ﷺ من بعد ما قام له الدليل الساطع على صحة نبوته ﷺ وانكشفت له الحقائق، وبان له الأمر ويختار غير طريق المؤمنين الذين أجمعوا مع الرسول ﷺ على هذا الدين، فالله - سبحانه وتعالى - يذره في ضلاله ويتركه في غوايته، ثم يعذبه في نار جهنم بأنواع العذاب وبئس المصير مصيره، وقبحًا له ولمنقلبه عند الله يوم القيامة. وهذا فيه دليل على أن إجماع الأمة حجة قاطعة، وأنه لا تجوز مخالفة الإجماع المتحقق.

﴿١١٦﴾ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾

الله لا يغفر لمن أشرك به، فالشرك ذنب لا يُغفر أبدًا، ولكن ما دون الشرك تحت المشيئة، إن شاء غفر الله لصاحب الذنب غير الشرك، وإن شاء عذبه؛ لأن صاحب الشرك قد أخطأ خطأً بينًا، وضلَّ ضلالاً واضحًا، وغوى غواية ما بعدها من غواية، وقد ابتعد عن رحمة الله - عز وجل - واستحق غضب الله على أعظم جُرم، وأكبر ذنب في العالم.

﴿١١٧﴾ ﴿ إِن يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَٰثٗا وَإِن يَدۡعُونَ إِلَّا شَيۡطَٰنٗا مَّرِيدًا ﴾

وهؤلاء الذين يدعون من دون الله إلهًا آخر إنما يدعون ويسألون آلهةً ألفَّوها من اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، ويدعون - أيضًا - شيطانًا متمردًا على الله قد بلغت به الغواية أعظم مبلغ، وقد بلغ في الضلال والعتو والفجور النهاية، فصار قدوةً لغيره، وأسوةً لسواه لكثرة ضلاله.

﴿١١٨﴾ ﴿ لَّعَنَهُ ٱللَّهُۘ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنۡ عِبَادِكَ نَصِيبٗا مَّفۡرُوضٗا ﴾

هذا الشيطان المريد قد طرده الله من رحمته وكتب عليه الشقاء في الدنيا والآخرة، وقال الشيطان حينها حالفًا ومقسمًا: لأغوين من عبادك قسمًا كبيرًا، طائفةً كثيرةً، وآخذ منهم قسطًا إلى النار بإضلالي لهم بالشهوات والشبهات.

﴿١١٩﴾ ﴿ وَلَأُضِلَّنَّهُمۡ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمۡ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ وَلَأٓمُرَنَّهُمۡ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلۡقَ ٱللَّهِۚ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيۡطَٰنَ وَلِيّٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدۡ خَسِرَ خُسۡرَانٗا مُّبِينٗا ﴾

وسوف أستمر في غوايتهم وفي عرض الأماني الكاذبة لهم، وحيل الخداع والتسويف والتدليس والتلبيس، ولألقين عليهم الأوامر، فيمتثلون أوامري من الزيغ الذي في قلوبهم والإجرام الذي في نفوسهم وحب المعصية الكامنة في قلوبهم، ومن أمري لهم أن يقطعوا آذان الإبل والبقر والغنم بما يسمونه البحيرة والسائبة والوصيلة، وآمرهم أن يغيروا أشكالهم وأشكال بهائمهم زيادةً في الغواية من خصاء العبيد وتعذيب البهائم، وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ونحو ذلك من الأفعال المحرمة كالنمص والوصل والوشم والتفلج للحسن ونحوها، مما حرَّمه الله ورسوله ﷺ، ولكن من يرضَ بالشيطان وليًا من دون الله ويحبه ويطع أوامره، ويتبع سبيله، فقد خسر الدنيا والآخرة، خسر نفسه ودينه وتعرض لمقت ربه وخرج من ولاية مولاه، وأفلس في عمله، وخاب سعيه وضل سبيله وغوى.

﴿١٢٠﴾ ﴿ يَعِدُهُمۡ وَيُمَنِّيهِمۡۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾

والشيطان إنما يعد أتباعه بالوعود الكاذبة والأماني الخادعة والتلبيس والأوهام والدجل والكذب، وكل الذي يفعله بهم هو غرور ومخادعة لا حقيقة لها، فيوهمهم بأن اللذة في المعصية، وأن الراحة في الجريمة، وأن الخير في مخالفة أمر الله، وكل هذا كذب لا حقيقة له، بل الخير كل الخير في طاعته - سبحانه وتعالى - وطاعة رسوله ﷺ.

﴿١٢١﴾ ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنۡهَا مَحِيصٗا ﴾

والذين يتبعون الشيطان ويرضون بمسلكه ويوافقونه على منهجه، فدارهم في الآخرة دار جهنم لا يجدون مفرًا منها ولا مهربًا، ولا مكانًا يخلصون إليه منها، بل تحيط بهم وتضطرم عليهم جزاءً لفعلهم الشنيع وذنبهم الفظيع.

﴿١٢٢﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَنُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ﴾

لكن الذين آمنوا بالله -عز وجل- واتبعوا رسوله وعملوا الصالحات وأنواع البر وسائر الخيرات فجزاؤهم عند الله - عز وجل- أن يسكنهم الحدائق الغناء، والبساتين الفيحاء التي تجري فيها الأنهار، وفيها الأشجار كافة والأزهار المختلفة مع حسن الإقامة، في دار الكرامة، ولزوم التنعيم، ودوام التكريم في جنات النعيم، وفي المقعد الكريم، بجوار الرب العظيم، مع الخلود أبدًا، والمكث سرمدًا، وهذا وعد لازم، وقول فصل وحق، والله لا أصدق منه إذا وعد، وقوله

- سبحانه وتعالى - هو المقدم على كل قول، فهو لا يخلف وعده ولا ينكث عهده، لا كالشيطان ولي الكفار الذي وَعْدُه كذب، وعهده زور، وأمانيه باطلة، ووساوسه خادعة.

﴿١٢٣﴾ ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾

ليس النجاة ودخول الجنة والحصول على رضوان الله بتمنيكم أيها المسلمون أو أنتم أهل الكتاب، فليست المسألة بالدعوة الخالية من الدليل بالعمل الصالح والامتثال، إنما يصدق ذلك العمل وإلا فالدعوة سهلة ويسيرة كلٌّ يدعيها، لكن المحك والمناط في الأمر هو العمل الصالح، وحسن الامتثال لله -عز وجل-، والله عالم بمن صدق في امتثال أمره ممن كذب، والذي يخالف أمر الله ويرتكب السوء يعاقبه - سبحانه وتعالى - إما في الدنيا أو في الآخرة، ولا يجد من ينصره من دون الله -عز وجل- ولا من يتولاه، فليس له وليّ ينفعه ويحفظه ويسدده، وليس له نصير يدفع عنه الضر ويصرف عنه العقاب.

﴿١٢٤﴾ ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾

والذي يعمل خيرًا ويقدم لنفسه برًا سواء كان رجلاً أو امرأة وهو مؤمن بالله - عز وجل- متبع لرسوله فإن مصيره إلى جنات النعيم والمقام الكريم، ولا يظلمه - سبحانه وتعالى - بترك شيء من حسناته التي قدمها ولو كان شيئًا يسيرًا وقليلاً بمقدار الحفرة التي في ظهر النواة، فلن يضيع الله سعيه ولا عمله، بل كل خير قدمه، وبرٍّ فعله محفوظ له.

﴿١٢٥﴾ ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا ﴾

لا أحد أحسن ديانةً ولا أقوم سبيلاً ولا أوضح منهجًا ممن استسلم لحكم ربه، وأطاع مولاه واجتنب ما حرّمه الله، وهو مداوم على طاعة ربه وسنة نبيه، مجتهد في طاعة مولاه وخالقه، وهو متبع في ذلك أحسن الملل وهي ملة إبراهيم دين الإسلام، ودين السماحة واليسر؛ لأن إبراهيم قد اصطفاه ربه واختاره عن سائر الخليقة وخصّه بالمحبة وبالقرب وبالزُّلْفَى؛ ولذلك اختار له أحسن الملل الإسلام، وأحسن الأديان الحنيفية السمحة.

﴿١٢٦﴾ ﴿ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ مُّحِيطًا ﴾

كل ما في السموات والأرض من الملائكة والجن والإنس وسائر المخلوقات والكائنات والموجودات ملك للباري سبحانه، يدبرها ويصرفها كيف يشاء، وهو مع ذلك مطلع لا تخفى عليه خافية، عالم لا تغيب عنه غائبة، جمع - سبحانه وتعالى - بين الملك والعلم، ومن كان هذا شأنه وصفته حُق للعبد أن يخافه وأن يرجوه، وأن يختار ما اختاره من الدين الصحيح الذي هو دين إبراهيم دين الإسلام، وبُعث به محمد ﷺ.

﴿١٢٧﴾ ﴿ وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴾

يسألونك يا محمد في شأن النساء، قل: الله سوف يخبركم بالأحكام الشرعية الخاصة بهنّ في كتابه، وما أوحاه إلي من السنة، و -أيضًا - سوف يخبركم بشأن ما أنزل في كتابه العظيم في شأن النساء الضعيفات اليتيمات اللواتي تتزوجونهن ثم لا تدفعون لهن مهرًا، فإن الله يأمركم بالعدل والإنصاف، وأن تتقوا الله - سبحانه وتعالى - في المرأة سواء أكانت يتيمة أم غير يتيمة في إعطائها حقها وإيصال المهر إليها كاملاً مكملاً، وكذلك يخبركم - سبحانه وتعالى - في شأن الأطفال من اليتامى وغيرهم أن تتقوا الله فيهم وتحفظوا حقوقهم، من الميراث وغيره، وأن تعدلوا بين اليتامى، فلا تجوروا في قسمة مواريثهم، ولا في الوصية لهم، وخافوا الله بألا تأكلوا أموالهم بالباطل، واعلموا أن ما

تقدمونه للمستضعفين واليتامى والفقراء والمساكين ونحوهم فالله - سبحانه وتعالى - عالم به، سوف يجازيكم عليه الجزاء الأحسن، وسوف يتقبله منكم إذا صدقتم وأخلصتم.

﴿١٢٨﴾ ﴿ وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴾

وإذا خشيت المرأة من زوجها أن يعرض عنها أو يفارقها وهي تريد البقاء معه فلا بأس أن تصطلح معه على إسقاط بعض الحقوق، وجبر الأمور والاتفاق على الأمر معًا، فتتنازل عن بعض حقها في البيتوتة ونحو ذلك من الاستمتاع؛ ليبقى شيء من الوفاق، فإن ما لا يُدرك كله لا يُترك جُلّه، ثم أمر الله - سبحانه وتعالى - بالصلح بين الزوجين؛ لأن الصلح فيه خير عظيم، فالموافقة والتنازل عن بعض الحقوق واستمرار العشرة أحسن من طلب الحق كله، ثم يعقب ذلك فراق وطلاق وبينونة، فالصلح خير؛ لأنه يدوم به الوفاق ويحصل به القرب ويزيل ما في النفوس، والنفوس مجبولة على البخل وعلى الشدة، وعلى الحرص الشديد على حقوقها، وعدم التنازل بشيء من ذلك وعدم إعطاء الآخرين من الخير، فالرجل حريص على متعته أو مفارقة زوجته إذا لم تعجبه، والمرأة حريصة على حقها كاملاً من زوجها ولو شق عليه، فالواجب التنازل من الطرفين ليجتمع الشمل، ولكن من أحسن في عشرة زوجته - ولو كرهها وصبر على أذاها لتستمر الحياة معها، وأحسنت هي في التنازل عن بعض الحقوق والصبر عن الجفاء الذي يحصل منه أو التقصير لتستمر الحياة الزوجية - فإن هذا خير عند الله - عز وجل - والله يعلم هذا الإحسان من فعل الخير ومن التقوى ومن ترك المعصية بينهم، وسوف يثيب الله - عز وجل - من أحسن من الزوجين بالثواب العظيم عنده.

﴿١٢٩﴾ ﴿ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾

لن تقدروا - أيها الرجال - على العدل كل العدل بين زوجاتكم مهما حاولتم ومهما حرصتم؛ لأن العدل أمر دقيق ومكلف، فلا يستطيع أحد أن يعدل في الحب والمعاشرة واللطف والقرب بين الزوجات؛ لأن هذا فوق طاقته وهو مُكّلف له، فإذا كان لا يستطيع فعليه أن يسدد ويقارب، فلا يجور على إحدى الزوجات بحيث يحرمها ولو بعض الحق ويميل إلى إحداهن كل الميل، فيترك الأخرى لا هي مطلقة ولا هي متزوجة؛ كالشيء المعلق ليس مستقرًا على الأرض، وليس واصلاً إلى السماء، فعلى العبد أن يصلح ويسدد ما استطاع، ويقارب بين الأمور ويجتهد جهده ويتقي مولاه، ويخاف ربه في هذه المرأة ألا يظلمها، ثم بيّن الله - سبحانه وتعالى عند حالة التقصير التي تحصل عند الأزواج والتي لابد منها - أنه غفور رحيم، وهو يتجاوز عن الأخطاء، ويسامح من قصر إذا اجتهد، ويغفر لمن استغفر، ويتغمد برحمته من بدرت منه بوادر، وهو واسع الفضل والإحسان في تشريعه وفي أمره وفي نهيه وفي قبوله لاستغفار من استغفر، وتوبة من تاب.

﴿١٣٠﴾ ﴿ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴾

لكن إذا لم يحصل اتفاق، ولم يقع الوفاق، وقد صمم على الفراق وعلى الطلاق، فالله - سبحانه وتعالى - سوف يغني الجميع من فضله، فسوف يغني الرجل بامرأة أخرى هي خير له من الأولى، وسوف يغني المرأة برجل آخر خير من الأول، فإن الله - سبحانه وتعالى - واسع الفضل والإحسان، عظيم الامتنان، بيده الخير كله، وهو يسهل - سبحانه وتعالى - النصيب الأحسن، واختياره أجمل، ومن فوض إليه الأمر كفاه وأعطاه وواساه.

﴿١٣١﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾

كل ما في السموات وما في الأرض ملك لله - سبحانه وتعالى - يدبره ويتصرف فيه، لا يغالبه مغالب ولا يعجزه شيء، وقد أمر الله - سبحانه وتعالى - اليهود والنصارى ممن كان قبلكم ومن قبلهم من الأمم وأمركم أنتم بأن تتقوه وتخافوه وتعملوا بأوامره وتتركوا نواهيه، وهذا فيه مصلحة لكم وخير عميم عظيم في الدنيا والآخرة، ولكن إذا رفضتم ذلك وكفرتم بالله وأشركتم معه وخالفتم رسوله وجحدتم آياته، فالله متصرف في الكون، غني عن إدبار من أدبر، فلا يضره كفر من كفر، ولا ينقص من ملكه شرك من أشرك، وهو محمود - سبحانه وتعالى - في ذاته على حسن أفعاله، وعلى جميل صفاته وأسمائه وعلى عظيم ذاته، وهو حميد أيضًا يشكر من أقبل إليه ومن آمن به ومن اتقاه.

﴿١٣٢﴾ ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

وملكه - سبحانه وتعالى - لما في السموات والأرض قهر وقدرة وإحاطة وعلم.. وأعاد هذا المعنى سبحانه وتعالى ليبين كمال استغنائه عن الخلق وقوة ملكه ونفوذ أمره - جل في علاه - وكفى به محصيًا لأعمال العباد، مطلعا عليها، حافظًا لها، مجازيًا عليها.

﴿١٣٣﴾ ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ قَدِيرًا﴾

وإذا أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يفنيكم أيها الخلق، ويذهب بكم ويستبدل غيركم، فمن الذي يرده؟ ومن الذي يعجزه؟ فقدرته نافذة، وحكمته باهرة، وأمره واقع، وملكه عظيم، وهو غني عن الكل من ذهب ومن بقي، من أطاع ومن عصى، ومن آمن ومن كفر، فلا إله إلا هو ما أعظمه.

﴿١٣٤﴾ ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾

من طلب لعمله الدنيا فأجر الدنيا وأجر الآخرة عند الله - سبحانه وتعالى - فلماذا هذا العبد يطلب الرخيص الخسيس، ويترك الأغلى والأحسن والأعلى، وما عند الله - سبحانه وتعالى - من الرضوان والفوز بالجنان ومغفرة الديان، فإن الله - سبحانه وتعالى - يطلع على أعمال هؤلاء الناس، وهو سميع لأقوالهم، بصير بأفعالهم، لا تخفى عليه خافية، يعلم المخلص من المرائي، والصادق من الكاذب، ومن أخفى نية أظهرها الله سبحانه وتعالى وعلمها - جل في علاه -.

﴿١٣٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾

أيها المؤمنون، اتقوا الله - سبحانه وتعالى - وكونوا عدولاً شاهدين بالحق، قائمين بالشهادة على الوجه الصحيح حتى لو كانت الشهادة على أنفسكم أنتم، أو على أقاربكم من الآباء والأبناء والإخوان، فلا تمنعكم القرابة من قول كلمة الحق والشهادة بالصدق على أكمل وجه، فلا يُخشى إلا الله، ولا يُخاف إلا هو - سبحانه وتعالى - حتى لو تكون الشهادة على الغني فلا يمنعكم غنى الغني وجاهه وسلطانه ومنصبه أن تُدلوا بالشهادة الحقة، وأيضًا لا يحملكم العطف والرحمة والإشفاق على الفقير ألا تقيموا الشهادة عليه، بل أقيموها فالله - سبحانه وتعالى - الأولى بالفقير وبالغني، وهو أعلم - سبحانه وتعالى - بما يصلح لهذا وهذا، وهو المتكفل برزقهم وهو المعطي لهم - سبحانه وتعالى - ومرد أمر الفقير والغني إليه، فعليكم ألا تتبعوا مراد النفوس الظالمة الجائرة في إرضاء الناس وإغضاب رب الناس، بل قولوا كلمة الحق، رضي من رضي، وغضب من غضب. المقصود أن تكونوا صادقين وإن حرَّفتم الشهادة أو كتمتموها فسوف يعلم الله - سبحانه وتعالى - ذلك ويحصيه عليكم ليحاسبكم به؛ لأنه اطلع - سبحانه وتعالى - على ما وقع، وسوف يجازي كلاً بما صنع.

﴿١٣٦﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلۡكِتَٰبِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبۡلُۚ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴾

أيها المؤمنون، داوموا على الإيمان واثبتوا على اليقين وتصديق الله - عز وجل - واتباع رسوله ﷺ، وعليكم بالإيمان بالقرآن الذي نزله الله - سبحانه وتعالى - على رسوله مفصلاً ومجملاً، وآمنوا - أيضًا - بالكتب التي أنزلها الله - سبحانه وتعالى - على رسله من قبل، والذي يعرض عن الهداية، ويحارب ربه ومولاه ويكفر بألوهية خالقه، ويجحد الملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر فهذا قد ابتعد عن الحق ابتعادًا كبيرًا، وضل ضلالاً عظيمًا، وأخطأ خطأً بَيِّنًا، ووقع في خسران ما بعده خسران، وأصابه خذلان لا أكبر منه خذلان.

﴿١٣٧﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزۡدَادُواْ كُفۡرٗا لَّمۡ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغۡفِرَ لَهُمۡ وَلَا لِيَهۡدِيَهُمۡ سَبِيلَۢا ﴾

المنافقون الذين آمنوا بالله ورسوله في الظاهر ثم ارتدوا على أعقابهم ثم رجعوا فآمنوا، ثم رجعوا فارتدوا وبعد الارتداد زادوا كفرًا إلى كفر بأعمالهم الشنيعة، وأفعالهم القبيحة، هؤلاء بعدما استمرؤوا الكفر والنفاق، وأدمنوا الردة والمخالفة، لن يتجاوز الله عن سيئاتهم، ولن يغفر ذنوبهم ويقبل عذرهم، ولن يقيل عثرتهم، ولن يوفقهم لتوبة بعدها، فقد أظلمت بصائرهم وانطمست معالم الخير في قلوبهم، وساء تصورهم؛ ولذلك من أدمن المعاصي وتاب وعاد ثم تاب وعاد فيُخشى عليه ألا تقبل توبته.

﴿١٣٨﴾ ﴿ بَشِّرِ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

يا محمد: بَشِّرْ هؤلاء المنافقين؛ على سبيل السخرية والاستهزاء بهم؛ لأنهم كانوا يسخرون من المؤمنين ويستهزئون بهم، بشرهم بعذاب مؤلم، وبجزاء فظيع، وعقاب شديد عند الله جزاءً لفعلهم ولخديعتهم ولمكرهم ولكذبهم.

﴿١٣٩﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَيَبۡتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلۡعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلۡعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾

هؤلاء المنافقون يتولون الكافرين من دون المؤمنين فيحبون أعداء الله، ويحاربون أولياء الله ويصادقون الكفار ويعادون المؤمنين، عجبًا لهم!! يريدون النصرة والمنعة والمكانة والمنزلة عند الكفار، والكافر لا يملك هذا، فهو فقير من ذلك كله، كيف لا يطلبونها عند من يملكها وهو الله - سبحانه وتعالى - فإنه لا أعز منه، فالعزة له ولرسوله وللمؤمنين، والتكريم عنده، والنصر والثواب الجزيل والنعيم المقيم، فلماذا ما طلبوها - قاتلهم الله - ممن يملكها جل في علاه؟.

﴿١٤٠﴾ ﴿ وَقَدۡ نَزَّلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أَنۡ إِذَا سَمِعۡتُمۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكۡفَرُ بِهَا وَيُسۡتَهۡزَأُ بِهَا فَلَا تَقۡعُدُواْ مَعَهُمۡ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيۡرِهِۦٓۚ إِنَّكُمۡ إِذٗا مِّثۡلُهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴾

أيها المؤمنون: قد بُيِّن لكم في القرآن العظيم أن عليكم إذا سمعتم الكفار يسخرون من آيات الله - سبحانه وتعالى - وأنتم في مجلس معهم فقوموا من ذلك المجلس مقاطعةً له ولهم، وإضرابًا عن الحديث معهم حتى ينتقلوا إلى حديث آخر، وإلى موضوع غير موضوع الاستهزاء بالله وبكتابه وبرسوله، لكنكم إذا رضيتم كما يفعل المنافق وجلستم معهم واستمعتم لقولهم ولو لم تتكلموا فأنتم معهم مشتركون في الإثم والوزر، وأما المنافق الذي يجلس مع الكافر ويشاركه الاستهزاء بالدين، والسخرية منه فإن الله سوف يجمعه معه في نار جنهم؛ لأنه أحب صحبته واختار مرافقته، فحشره الله معه.

﴿١٤١﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلَۢا ﴾

هؤلاء المنافقون ينتظرون بالمؤمنين الدوائر، ويتحرون أن تنزل بهم الكوارث والهزائم، فإذا وقعت واقعة وكان النصر للمسلمين قال المنافقون للمسلمين: نحن حضرنا معكم وشاركناكم بالظاهر فنريد حظنا من الغنيمة، وإن كان النصر

للكفار على المؤمنين قالوا: أما تركنا قتالكم وخذَّلنا عنكم وتباطأنا في منازلتكم وكففنا عنكم، فأعطونا نصيبنا من الغنيمة فنحن كنا سببًا في منع المؤمنين وخذلهم وتوهين صفهم. فأخبر - سبحانه وتعالى - بأنه سوف يحكم بين الجميع يوم العرض الأكبر بين المؤمنين والمنافقين والكافرين فهو يعلم عمل الجميع، وسعي الجميع، وما نواه الجميع، وبشّر - سبحانه وتعالى - أنه لن يمكِّن الكفار من رقاب المؤمنين فيبيدوهم ويستأصلوهم ويزيلوهم من الأرض ويفنوهم عن بكرة أبيهم، هذا لن يكون أبدًا ولو كان للكفار جولة أو صولة فإن العاقبة - بإذن الله - للمؤمنين، والنصر الأخير لعباد الله الصالحين.

﴿١٤٢﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾

هؤلاء المنافقون يلعبون بدينهم ويخادعون ربهم في ظنهم، والله - سبحانه وتعالى - هو الذي سيخدعهم -جل في علاه- فإنه عصم دماءهم في الدنيا، ولكنه أعد لهم غاية العقاب وأفظع العذاب في نار جهنم، فهم يظنون أنهم لبّسوا أمرهم على خالقهم ومولاهم، والواقع أن الله لبَّس عليهم أعمالهم وغطى بصائرهم وحجب الفَهْم عن عقولهم، ومن صفاتهم أنهم يتكاسلون في أداء الصلاة فيؤدونها بلا حب ولا نية ولا خشوع؛ لأنهم لا يريدون أجرًا ولا يخافون وزرًا ولا عذابًا، بل يريدون أن يعصموا دماءهم بهذه الصلاة، ويُقال في الظاهر: إنهم مسلمون، فهم يريدون المحمدة من الناس وكف الأذى من المؤمنين بصلاتهم التي لا تنفعهم، ومن صفاتهم أنهم قليلو الذكر لله - عز وجل - سواء باللسان أو بالقلب، فمن أحب الله أكثر من ذكره، والمنافق لا يحب ربه ولذلك لا يذكر مولاه، فمن أكثر من ذكر ربه فقد برئ من النفاق، ولو لم يكن في الذكر إلا هذه الفائدة لكفى بها.

﴿١٤٣﴾ ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾

هؤلاء المنافقون حائرون مترددون، مرةً مع المؤمنين ومرة مع الكافرين، لا يثبتون على رأي ولا يقفون على قول ولا يستمرون على مبدأ، كل يوم لهم طريق ومنهج وسيرة يتلونون ويتشكلون وفْقَ المصالح المعيشية والمطالب الدنيوية، فإن كانت المصلحة مع المؤمنين دخلوا معهم، وإن كانت مع الكافرين ساروا معهم، وهؤلاء أضلَّهم الله - سبحانه وتعالى - على علم، ومن يضلُّه - سبحانه وتعالى - فلن تجد له من يرشده ولا من يسدده ولا من يريه طريقه ولا من يوفقه ويأخذ بيده، بل يبقى في طغيانه وغوايته.

﴿١٤٤﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا﴾

أيها المؤمنون: لا تكونوا كالمنافقين الذين تولوا الكفار من دون الواحد القهار وتركوا صحبة الأبرار وذهبوا مع الفجار، هؤلاء لا تسلكوا مسلكهم، وعليكم أن تتولوا الله ورسوله والمؤمنين، فإنكم إذا توليتم الكفار من دون المؤمنين جعلتم لله حجة في أن يعاقبكم، وأن ينتقم منكم، وأن يوقع بكم أشد العذاب وأفظع العقاب.

﴿١٤٥﴾ ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾

هؤلاء المنافقون في أسفل طبقة من النار؛ لأن فعلهم أشد من فعل الكفار، فهم خادعوا المؤمنين ولعبوا في الدين واستهزؤوا بعباد الله الصالحين، ومكروا بأوليائه، وأعانوا المشركين من داخل صف المؤمنين، وخذلوا المؤمنين في مواقف الجهاد والنصرة، فكان جزاؤهم أن ينكّل الله بهم أشد النكال، ويعذبهم أشد العذاب، وليس لهم من يدفع عنهم العذاب ولا من يحميهم من العقاب عند الواحد الأحد.

﴿١٤٦﴾ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾

لكن من تاب من هؤلاء المنافقين وعاد إلى الله وندم على ما فعل، وأصلح عمله عَوضًا مِمَّا أفسده من قبل واعتصم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ وتمسك بهما، وعض النواجذ على الشرع المطهر، وأخلص العمل لربه، وترك الرياء

والسمعة وصدق في طاعة مولاه، فمصير هؤلاء مع المؤمنين في الثواب والأجر العظيم، والله - سبحانه وتعالى - قد وعد المؤمنين الأجر العظيم والثواب الجزيل والمقام الآمن، فهم معهم في الأجر؛ لأنهم فعلوا فعلهم.

١٤٧ ﴿ مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴾

أي مصلحة لله في تعذيب عباده؟ أي منفعة للخالق في التنكيل بالمخلوق؟ أي خير يريده - سبحانه وتعالى - من أن ينزل العذاب الشديد بعبيده؟ هل يتشفى من غيظ وجده - جل في علاه -؟ أم يريد أن يدرك الثأر لا إله إلا هو؟ أم يريد بهذا العقاب أن يجلب النفع لنفسه - تقدس اسمه -؟ أم يريد - جل في علاه - أن يدفع الضر عنه سبحانه؟ هذا لا يوجد ولا يكون، فهو الغني عن الكل الحاكم للجميع، المتصرف في أمر الجميع، بل من شكر الله على نعمه، وآمن بشرعه فلن يعذبه الله - سبحانه وتعالى - وليس الله - سبحانه وتعالى - محتاجًا إلى عذاب أحد ولا إلى طاعة أحد، ولكنه أمر بها - سبحانه وتعالى - وهو شاكر لمن أحسن، وعليم بمن أساء، فهو يشكر الإحسان ويعلمه، ويعاقب على الإساءة ويعلمها.

١٤٨ ﴿ لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلْجَهْرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾

الله لا يحب كشف الأسرار وهتك الأستار وإظهار الفضائح وبث القبائح، ولا يحب - سبحانه وتعالى - أن يفحش الإنسان إذا تحدث ولا أن يؤذي أحدًا في لفظه إلا المظلوم، فإنه يجوز له أن يذكر الظالم بما فيه من قبائح ليجتنب الناس ظلمه، وليُبرز مظلمته وليخبر عما وقع عليه من حيف، ويجوز أن يدعو على ظالمه ليجتنب الناس هذا الظالم، والله - سبحانه وتعالى - يسمع أقوال الجميع من أحسن ومن أساء، ويعلم أعمال الجميع من أصاب ومن أخطأ، وسوف يحاسب الجميع - جل في علاه - ولا إله إلا هو.

١٤٩ ﴿ إِن تُبْدُوا۟ خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا۟ عَن سُوٓءٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴾

أيها الناس، إن أظهرتم الخير أو أخفيتموه، أو تجاوزتم عن إساءة من أساء، فالله عالم بذلك مطلع عليه، وجاء العفو عمن أساء بعد جواز ذكر الظالم بما فيه ليبين - سبحانه وتعالى - أن من عفا وأصلح وترك قول السوء في من ظلمه كان حسنًا؛ لأن من صفاته - سبحانه وتعالى - أنه يعفو عمن أساء، وهو قدير على أن يعاقبه، ومع ذلك يتجاوز - سبحانه وتعالى - فهو أقدر على عقوبة خَلْقِه من خَلْقِه، ومع ذلك تجاوز عن الخَلقِ، فالخلقُ بحاجة إلى أن يتجاوز بعضهم عن بعض لحاجتهم إلى عفو ربهم سبحانه وتعالى.

١٥٠ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا۟ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا ﴾

الذين كفروا بالله - سبحانه وتعالى - ورسله وهم يريدون أن يفرقوا في الإيمان بين الإيمان بالله ورسله، فاليهود آمنوا بموسى والتوراة، وكفروا بعيسى والإنجيل وبمحمد وبالقرآن، والنصارى آمنوا بعيسى والإنجيل، وكفروا بموسى والتوراة وبمحمد والقرآن، أما المؤمنون فآمنوا بمحمد والقرآن وبعيسى والإنجيل وبموسى والتوراة، وبعضهم يريد أن يفرق بين الله ورسله فيؤمن بالله وحده، ولا يؤمن برسله، حسدًا وبغيًا من هؤلاء الكفار، وبعضهم يقولون نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعضهم الآخر، ونتخذ طريقًا وسطًا نختاره لنا، ومنهجًا نرتضيه، وهو منهج باطل منحرف ضال لا خير فيه ولا يقبله الله.

١٥١ ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ حَقًّا ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾

هؤلاء الذين يفعلون ذلك من التفرقة بين الله ورسله والكفر ببعض الأنبياء والإيمان ببعض، هم كافرون على الحقيقة لا شك في كفرهم، خارجون عن الملة، خالدون في النار، والله قد أعد لهم في الآخرة من النكال والعذاب والإهانة ما الله به عليم، جزاءً على كفرهم وطغيانهم.

﴿١٥٢﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَلَمۡ يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ أُوْلَٰٓئِكَ سَوۡفَ يُؤۡتِيهِمۡ أُجُورَهُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾

أما المؤمنون الصادقون الذين آمنوا بالله وبكتابه واتبعوا رسوله محمدًا ﷺ، ولم يفرقوا بالإيمان بين رسل الله - سبحانه وتعالى - بل آمنوا بجميع المرسلين وصدقوا جميع الأنبياء، فهؤلاء لهم عند الله - عز وجل - الثواب الجزيل والأجر العظيم؛ لأن الله - سبحانه وتعالى - واسع الإحسان كثير الامتنان، يحب العفو ويتجاوز عن الخطأ، ويحلم على المسيء، وهو - سبحانه وتعالى - يتغمد المقبل إليه بواسع الرحمة والفضل -جل في علاه-.

﴿١٥٣﴾ ﴿ يَسۡـَٔلُكَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيۡهِمۡ كِتَٰبٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِۚ فَقَدۡ سَأَلُواْ مُوسَىٰٓ أَكۡبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓاْ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهۡرَةٗ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلۡمِهِمۡۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُواْ ٱلۡعِجۡلَ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُ فَعَفَوۡنَا عَن ذَٰلِكَۚ وَءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴾

يطلب منك اليهود - يا محمد - أن تأتيهم بكتاب من السماء جملةً واحدة، فلا تعجب من هذا الطلب، فقد طلبوا من موسى أكبر مما طلبوا منك، فقد سألوه أن يريهم الله - سبحانه وتعالى - جهارًا نهارًا علانية؛ لينظروا إلى الله - سبحانه وتعالى - ولقبح سؤالهم وخبث صنيعهم أحرقهم الله بالصاعقة لجورهم بالسؤال وعدم التأدب مع ذي الجلال وما كفاهم هذا، بل عبدوا العجل من دون الله - سبحانه وتعالى - من بعد ما أظهر الله المعجزات والآيات البينات على يد موسى من العصا واليد وفلق البحر وغير ذلك، ثم تاب الله - سبحانه وتعالى - عليهم من بعد هذا الفعل وأمهلهم وأظهر موسى عليهم بالحجة والبيان الواضح والسلطان الباهر.

﴿١٥٤﴾ ﴿ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَهُمُ ٱلطُّورَ بِمِيثَٰقِهِمۡ وَقُلۡنَا لَهُمُ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا وَقُلۡنَا لَهُمۡ لَا تَعۡدُواْ فِي ٱلسَّبۡتِ وَأَخَذۡنَا مِنۡهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ﴾

وهؤلاء اليهود قد رفعنا فوقهم الجبل، رفعناه فوق رؤوسهم لما أخذنا عليهم الميثاق، وهددناهم بإسقاط الجبل على رؤوسهم إن لم يمتثلوا العهد الوثيق والميثاق الغليظ، فأجابوا ثم نكثوه ونقضوه، وأمرناهم بالدخول إلى بيت المقدس من بابه وأن يقولوا: حِطة -حطَّ عنا خطايانا- فدخلوا مستهزئين يزحفون وهم يقولون حبة حنطة في شعيرة أو في شعرة، وأمرناهم بألا يصطادوا يوم السبت، فرفضوا أمرنا، وخالفوا نهينا، واصطادوا يوم السبت، وسبق أن أخذنا عليهم المواثيق في هذا كله، ولكنهم نقضوا كل ميثاق، فخانوا كل عهد ونكثوا كل وعد.

﴿١٥٥﴾ ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ وَكُفۡرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتۡلِهِمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَقَوۡلِهِمۡ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَلۡ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيۡهَا بِكُفۡرِهِمۡ فَلَا يُؤۡمِنُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾

فبسبب نقضهم للمواثيق ونكثهم للعهود، وجحدهم بآيات الله وقتلهم لأنبياء الله -عز وجل- بغير حق مسخهم الله وأذلهم وأعمى أبصارهم، و - أيضًا - قالوا لخاتم النبيين - عليه الصلاة والسلام - إنَّ قلوبنا مغطاة لا تفقه شيئًا مما تحدثنا به، ومما نزل به عليك، فقال سبحانه وتعالى: بل كذبوا فيما قالوا، لكن الله طبع على قلوبهم وغطاها بسبب الكفر وبسبب جرائمهم وأعمالهم الشريرة، فلا يؤمن منهم إلا القليل أما الكثير فكافرون خارجون عن الملة.

﴿١٥٦﴾ ﴿ وَبِكُفۡرِهِمۡ وَقَوۡلِهِمۡ عَلَىٰ مَرۡيَمَ بُهۡتَٰنًا عَظِيمٗا ﴾

وبكفرهم - أيضًا - بالله - سبحانه وتعالى - وتكذيبهم لآياته التي أنزلها على رسوله وفريتهم العظيمة وبهتانهم القبيح على مريم الطاهرة الصديقة لما اتهموها بالزنا -برّأها الله- قالوا: إن عيسى ابن زنا، والعياذ بالله.

﴿١٥٧﴾ ﴿ وَقَوۡلِهِمۡ إِنَّا قَتَلۡنَا ٱلۡمَسِيحَ عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمۡۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكّٖ مِّنۡهُۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينَۢا ﴾

ومن جرائمهم - أيضًا - ومكرهم وكيدهم ادّعاؤهم الكاذب أنهم قتلوا المسيح عيسى ابن مريم الرسول من عند الله، والحقيقة أنهم لم يقتلوه، وأنهم لم يصلبوه ولكن الله شبه عليهم المسألة فأتى رجل منهم يدلهم على عيسى، فألقى

الله شبه عيسى على هذا الرجل، فقتلوا هذا الرجل، ثم وقعوا في مرية وشك، وقالوا: إن كان المقتول عيسى فأين صاحبنا؟! وإن كان صاحبنا المقتول فأين عيسى؟! واليهود والنصارى أصلاً في شك وحيرة من قتلهم وصلبهم لعيسى، فإن اليهود يزعمون أنهم قتلوا عيسى وما عندهم بيّنة ولا دليل قاطع بذلك، والنصارى يرون أن اليهود قتلوه ثم يدّعون ألوهيته، فكيف يكون إلهًا ومع ذلك يُقتل، والإله لا يُقتل ويدافع عن نفسه ؟! ومع هذا الشك فإن اليهود والنصارى ليس لديهم يقين في هذه المسألة، وما عندهم إلا ظنون وشكوك، فالواقع أنهم لم يقتلوه ولم يصلبوه، ولكن الله رفعه بجسده وروحه وتوفاه الله في السماء.

﴿١٥٨﴾ ﴿ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

فرفع الله – سبحانه وتعالى – عيسى وبرأه مما قالوا ونزهه مما نسبوا إليه وإلى أمه، وحماه الله منهم، والله عزيز لا يُغالب، وقوي لا يُقهر، وحكيم في تصريفه وتدبير أمور خلقه، وفي أمره ونهيه.

﴿١٥٩﴾ ﴿ وَإِن مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤۡمِنَنَّ بِهِۦ قَبۡلَ مَوۡتِهِۦۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدًا ﴾

ما من يهودي ولا نصراني في آخر الزمن إلا سوف يصدق بأن عيسى رسول وليس بإله، وأنه لم يُصلب، حينما ينزل عيسى في آخر الزمان، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية، حينها يصدق به اليهود والنصارى الذين كانوا يكذبونه، وكان اليهود يقولون إنهم قتلوه وصلبوه، والنصارى ألَّهُوه، فحينها يؤمنون أنه رسول، وأنه لم يُقتل ولم يُصلب، ويوم يبعث الله الأولين والآخرين سوف يشهد عليهم عيسى ابن مريم، يشهد لمن آمن به ويشهد على من كفر به.

﴿١٦٠﴾ ﴿ فَبِظُلۡمٖ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتۡ لَهُمۡ وَبِصَدِّهِمۡ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴾

وبسبب انحراف اليهود وجورهم وتكذيبهم لكتاب الله ورسوله، عاقبهم الله – سبحانه وتعالى – فحرم عليهم بعض الطيبات التي كانت حلالاً لهم جزاءً على مخالفتهم لأمره، وجزاءً على أنهم منعوا كثيرًا من الناس منهم من دخول الإسلام، وقهروهم وحجبوهم عن الهداية.

﴿١٦١﴾ ﴿ وَأَخۡذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدۡ نُهُواْ عَنۡهُ وَأَكۡلِهِمۡ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِۚ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ مِنۡهُمۡ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾

ومن معاصيهم ومما تسبب في عقوباتهم أكلهم الربا وهو محرم عليهم في شريعتهم، ومنهي عنه، وأخذهم أموال الناس بغير وجه شرعي من السحت والسرقة والمعاملات المحرمة، والبيوع المنهي عنها، والله – سبحانه وتعالى – قد أعد لهم ولكل كافر عذابًا فظيعًا في الآخرة، ونكالاً شديدًا في نار جهنم.

﴿١٦٢﴾ ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ مِنۡهُمۡ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَۚ وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا ﴾

لكن يُستثنى من اليهود الذين تمكنوا من العلم النافع وثبتوا على الإيمان، وفهموا حقائق الدين، فهم يؤمنون بما أنزل عليهم، وما أنزل عليك – يا محمد – من الكتاب والسنة، ونخصُّ من أقام الصلاة بالمدح؛ لأنها أعظم ركن بعد الشهادة، وكذلك من الذين يؤتون الزكاة طيبة بها أنفسهم، ومن يؤمنون بلقاء الله –عز وجل– والبعث بعد الموت والنشر والحشر، هؤلاء ادخر الله لهم ثوابًا جزيلاً، ومقامًا أمينًا، وسوف يكرمهم في جناته جزاءً لإيمانهم وصلاتهم وزكاتهم وبرِّهم وفضلهم.

﴿١٦٣﴾ ﴿ إِنَّآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ كَمَآ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ نُوحٖ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيۡمَٰنَۚ وَءَاتَيۡنَا دَاوُۥدَ زَبُورٗا ﴾

أنت – يا محمد – قد أنزلنا عليك وحيًا كما أنزلنا على الذين سبقوك كوالد الأنبياء نوح – عليه السلام – والذين جاؤوا من بعده كشيخ التوحيد وإمام الملة إبراهيم وابنه إسماعيل وابنه الآخر إسحاق وابن إسحاق يعقوب

الذي هو إسرائيل، وأبناؤه من الأسباط، وعيسى من أعظم أنبياء بني إسرائيل وأيوب العبد الصابر، ويونس بن متى الذي نجا من الكرب، وهارون أخو موسى، وسليمان صاحب الملك العظيم، والعبد الكريم الحكيم، وداود صاحب الزبور، وإنما أكثر - سبحانه وتعالى - من ذكر أنبياء بني إسرائيل تبكيتًا لهم بكثرة أنبيائهم مع كثرة إعراضهم، وأنه قد أقام الحجة عليهم، وأنه أكرمهم بالرسالة، وإنزال الكتب، ومع ذلك حسدوا الناس، وبغوا وكفروا، وقتلوا أنبياءهم.

﴿١٦٤﴾ ﴿ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴾

وهناك - يا محمد - رسلٌ آخرون نَقُصُّهم عليك غير هؤلاء الرسل الذين أخبرناك بخبرهم وذكرنا أسماءهم، فالرسل كثيرون وهم جمع غفير، وعلى المسلم أن يؤمن بهم جميعًا على الإجمال والتفصيل، من ذُكر منهم ومن لم يُذكر، وأكرم موسى - عليه السلام - من بينهم بالتكليم، واختصه بهذه المنزلة العظيمة تكريمًا له وإنعامًا عليه.

﴿١٦٥﴾ ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾

وهؤلاء الرسل والأنبياء يُبَشِّرون بجنات النعيم لمن أطاع الله، وينذرون بنار الجحيم لمن عصاه، وإنما أرسلهم الله لقطع اعتذار الناس بعدم إرسال الرسل، وإقامة الحجة لئلا تكون للناس حجةٌ على الله، فلا يقول الكافر إذا كفر لم يُرْسَلْ إليَّ رسول، وما أُنزل عليّ كتاب، فالله سبحانه وتعالى أرسل الرسل ليقطعوا المعاذير، وليقيموا الحجج على الناس، ومن عزته - سبحانه وتعالى - أنه أرسل الرسل وأنزل الكتب وأثاب من أطاعه، وعذّب من عصاه، ومن حكمته - سبحانه وتعالى - أنه لا يعطي الثواب غير مستحقه، ولا ينزل العقاب على غير من هو أهلٌ له، لكن كل شيء بحكمة، وحسن تصريف، وجمال تدبير.

﴿١٦٦﴾ ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴾

وإذا لم يشهد هؤلاء بنبوتك ورسالتك فالله يشهد وحده أنه أنزل إليك القرآن وأنزله - سبحانه وتعالى - بعلمه واطلاعه -جل في علاه-، ويشهد مع الله -عز وجل- ملائكته، يشهدون بصدقك وبنزول الكتاب عليك، وإن لم يشهد أحد فيكفي شهادة الواحد الأحد -جل في علاه- فهو خير الشاهدين، وهو المطلع على كل خافٍ، العالم بكل غائب، وشهادته تغني وتكفي.

﴿١٦٧﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾

إن أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم ممن كفروا بالله، ومنعوا الناس من الدخول في دين الله، واتباع رسول الله قد جمعوا بين الفساد في أنفسهم والإفساد لغيرهم، بين الضلال في مناهجهم وإضلال سواهم، هؤلاء ابتعدوا عن الحق ابتعادًا كبيرًا، وقد أخطؤوا خطأً بينًا، وارتكبوا غواية ما بعدها غواية، وأسرفوا في العصيان.

﴿١٦٨﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴾

وهؤلاء الكفار جمعوا بين جحد آيات الله - عز وجل - وظلم عباده بأن صدوهم عن طاعة الله - عز وجل - بالشبهة وبالوَهْم، وهؤلاء لن يتجاوز الله عن سيئاتهم ولن يغفر زلاتهم ولن يعفو عن خطيئاتهم، ولن يرشدهم، ولن يفقههم في الدين، ولن ينير بصائرهم؛ لأنهم أغرقوا في الكفر وفي رد الناس عن طاعة الله -عز وجل- فهم ضالون ضُلّال لغيرهم.

﴿١٦٩﴾ ﴿ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴾

هؤلاء لا يهديهم الله - سبحانه وتعالى - طريق الخير والرشاد وطريق الجنة والعمل لها، إنما يدلهم على طريق النار وبئس القرار؛ لأنهم أغضبوا الجبار، هذه النار سوف يدخلونها خالدين مخلدين مؤبدين فيها جزاءً على أعمالهم القبيحة الشنيعة، والله - عز وجل - سهلٌ عليه أن ينتقم ممن عصاه، وأن يأخذ ممن خالف أمره، وأَبَى كتابَهُ وسُنَّةَ رسوله ﷺ فلا يغلبه غالب، ولا يمتنع عليه أمر، ولا يعجزه طلب.

﴿١٧٠﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلۡحَقِّ مِن رَّبِّكُمۡ فَـَٔامِنُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ وَإِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ﴾

أيها الناس: قد أُرسل إليكم محمد ﷺ ومعه القرآن الكريم، وهو كتاب موحى إليه من ربه، فننصحكم ونوصيكم بأن تتبعوه وتصدقوا ما جاء به، فوالله إنه الخير كل الخير في اتباعه وامتثال أمره، وهو الأسلم لكم في الدنيا والآخرة، ولكن إذا جحدتم آيات الله وعصيتم رسوله فالله غني عنكم؛ لأن له ملك السموات والأرض تصريفًا وتدبيرًا وخلقًا ورزقًا، فأي ضرر يدخل عليه إذا أعرضتم عن طاعته، والله - سبحانه وتعالى - عالم بكل خافٍ مطلع على كل سريرة، حكيم في كل تدبير وتصريف، فهو - سبحانه وتعالى - جمع بين العلم الذي هو الاطلاع على مواقع القدر والأحكام، حكيم في تنفيذ ما علم - سبحانه وتعالى - وفي ميزان مواطن قضائه وقدره المواطن اللائقة بها.

﴿١٧١﴾ ﴿ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَانَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴾

يا معاشر النصارى، لا تتجاوزوا الحد في دينكم فَتَدَّعوا ألوهية عيسى وهو عبدالله ورسوله، فلماذا لا تقولون الحق في هذه المسألة كما أخبر الله سبحانه وتعالى؟ ولماذا تقولون الزور والبهت والباطل؟ إنما المسيح عيسى عبد الله ورسوله، وهو كلمة من الله - سبحانه وتعالى - ألقى الله هذه الكلمة على جبريل، وجبريل نفخ بها في جسم مريم الطاهرة البتول، فآمنوا بما أخبر الله به، وصدقوا رسله كعيسى وموسى ومحمد، ولا تقولوا إنّ الإله ثلاثة: الله والمسيح ومريم، وإنهم اتحدوا فصاروا إلهًا واحدًا، وهذا كذب وزور، فاتركوا هذه الأقاويل الباطلة، وهذه الكذبات القبيحة، فالله إله واحد - سبحانه وتعالى - لا إله إلا هو، هو المستحق للعبادة، والمستأهل للألوهية وهو الخالق والرازق وحده، وما سواه مخلوق سواء مريم أو عيسى أو غيرهما، فتعالى الله - سبحانه وتعالى وتقدس - عما نسبتموه إليه من ذكر الأقاويل الثلاثة على حد زعمكم: الأب والابن وروح القدس، وقلتم إن مجموعها واحدة، وهي مقولة خاطئة آثمة كاذبة، وهي زور وبهتان، فتعالى الله - سبحانه وتعالى - أن يتخذ ولدًا من العباد، فهو غني عن اتخاذ الولد، وهو إله متفرد في الألوهية والربوبية لا يولد له ولد؛ لأنه ليس له صاحبة أي: زوجة يأتي منها نسل، ولو كان هناك له ولد لكان فيه صفات الألوهية، والله لا يشابهه أحد في صفاته - جل في علاه -؛ لأن له ما في السموات وما في الأرض، فالذي له ما في السموات والأرض لا يحتاج إلى ابن، فهو يتصرف في الخليقة كيف يشاء، وهم عباد أذلاء مقهورون تحت قدرته وملكه ويكفي بالله - سبحانه وتعالى - محاسبًا لهؤلاء ومطلعًا على ما أسروه، وحافظًا لأعمالهم، وما افتروه ليحاسبهم على قبيح ما صنعوه وما تفوهوا به وما قالوه.

﴿١٧٢﴾ ﴿ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴾

والمسيح عيسى ابن مريم أصلاً لا يتكبر عن عبادة ربه ولا يأنف، بل يتشرف بذلك ويفخر بعبودية مولاه والاستسلام له والانقياد له، وكذلك الملائكة المقربون ليس عندهم أنفة ولا كبر ولا تَمَنُّع ولا إباء، فهم كلهم يعبدون الله ويسبحونه الليل والنهار، لا يفترون ولا يسأمون، وإن حصل أن بعض العباد تكبروا عن عبادة الله وأبوا وأنفُوا من ذلك فسوف يعيدهم الله إليه يوم القيامة ليحاسبهم بفعلهم، فالمرجع والمرد إليه، فهو - سبحانه وتعالى - الذي يُخاف ويُرجى لا إله إلا هو.

﴿١٧٣﴾ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ﴾

أما المؤمنون الصادقون الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله وعملوا أنواع الخيرات وصنوف البر، فالله - سبحانه وتعالى - سوف يوفيهم سعيهم ولا ينقصهم من أجورهم شيئًا، ولا يبخس من حظوظهم العظيمة في الآخرة، وسوف يزيدهم

على ثواب ما فعلوا كرمًا منه وتفضلاً - جل في علاه -، وأما الذين أبوا وأنفوا وتكبروا وأعرضوا عن عبادة الله - سبحانه وتعالى - فجزاؤهم العذاب الأليم والأخذ الشديد، فليس لهم وليّ يجلب نفعًا ويحفظهم من العذاب، وليس لهم نصير يدفع عنهم العقاب، ولا يُحَامٍ عنهم محامٍ، ولا يذب عنهم ذاب، بل سوف يتولى الله تعذيبهم لا إله إلا هو.

﴿١٧٤﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَكُم بُرۡهَٰنٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ نُورٗا مُّبِينٗا ﴾

أيها البشر: قد أتتكم آية باهرة وحجة قاطعة وعلامة مشهورة ورسالة محمودة من ربكم الذي تكفل بخلقكم ورزقكم، فأكرمكم بهذا النبي الأمي العربي محمد بن عبدالله ﷺ الذي هو من أعظم الرسل على الله، ورسالته قد ظهرت أدلتها وسطعت براهينها، وأنزل معه كتابًا محكمًا فيه من الآيات والعبر والمواعظ وأحكام الحلال والحرام والآداب والأخلاق ما يفوق الوصف ويربو عن المدح ويجل عن الثناء، وهو نور يهدي به الله -عز وجل- في ظلمات الحياة، وينير طريق من اتبع وتدبر وعمل بما فيه.

﴿١٧٥﴾ ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَٱعۡتَصَمُواْ بِهِۦ فَسَيُدۡخِلُهُمۡ فِي رَحۡمَةٖ مِّنۡهُ وَفَضۡلٖ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَيۡهِ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمًا ﴾

أما الذين صدّقوا بألوهية ربهم ووحدانيته وأخلصوا العبودية له وتمسكوا بشرعه والتزموا سنة نبيه، فجزاؤهم أن يكرمهم الله برحمةٍ تأتي على ذنوبهم وخطاياهم وتنزلهم أعظم المنازل وبفضل من الأجر العظيم والثواب الجزيل، وسوف يتولى الله أمرهم في الدنيا والآخرة، فيوفقهم لأحسن الطرق وأجمل المناهج وأحسن المسالك ويورثهم في السعادة الأبدية والخير السرمدي.

﴿١٧٦﴾ ﴿ يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِۚ إِنِ ٱمۡرُؤٌاْ هَلَكَ لَيۡسَ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَهُۥٓ أُخۡتٞ فَلَهَا نِصۡفُ مَا تَرَكَۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ فَإِن كَانَتَا ٱثۡنَتَيۡنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخۡوَةٗ رِّجَالٗا وَنِسَآءٗ فَلِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ أَن تَضِلُّواْۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمُۢ ﴾

يسألك الناس - يا محمد - عن مسألة الكلالة، وهو الرجل يموت وليس له والد ولا ولد، فمن الذي يرثه؟ هل يرثه أخوه أو ترثه أخته، فأخبرهم أن هذا الميت إذا مات وليست له إلا أخت واحدة وليس له آباء ولا أبناء، فلأخته الشقيقة أو أخته من أبيه نصف الميراث من تركته، وأخوها الشقيق أو أخوها لأب يرث جميع تركتها إن لم يكن لها والد ولا ولد، وإذا كانت الأختان اثنتين فأكثر فلهما الثلثان مما ترك أخوهما، وإن كان الورثة إخوةً وأخواتٍ فللذكر منهم مثل نصيب الأختين، وهذا يبينه - سبحانه وتعالى - حتى لا يخطئ الناس في قسمة المواريث، أو أن لا يسددوا فيقع الظلم والحيف على بعض الورثة وبخاصة من اليتامى والمساكين والإناث؛ ولذلك ختم الله - سبحانه وتعالى - هذه السورة بحقوق النساء والأيتام والبنات والأخوات لضعفهن، وليذكّر العباد ما لهن من الحقوق التي يجب أن تصان وأن تحترم وأن تؤدى إليهن كاملة مكملة.

مدنية

ترتيبها ٥

سورة المائدة

آياتها ١٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

١ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾

أيها المؤمنون، يا من صدّقتم بكتاب الله واتبعتم رسول الله، أوفوا بما عاقدتم عليه ربكم وما عاهدتم عليه مولاكم، وأوفوا بما بينكم وبين الناس من عقود وعهود، فلا تنقضوا العهد وتنكثوا الميثاق، وأتموا ما اصطلحتم عليه وما وافقتم عليه من الوثائق والصكوك وعقود النكاح والبيع والإيجار وسائر أنواع الشركات والمعاملات، والمواثيق الإنسانية والدولية التي لا تخالف الشرع، ومن نعم الله عليكم أن أحل لكم لحوم الإبل والبقر والضأن والماعز بعدما تُذبح على الطريقة الإسلامية، ولا يجوز لكم أن تصيدوا وأنتم محرمون صيد البر؛ لأنكم دخلتم في شعائر الحج والعمرة؛ فينبغي أن يأمنكم الناس والطير والحيوان، واعلموا أن الله - سبحانه وتعالى - يفعل في خلقه ما أراد، ويحكم ما شاء، لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه.

٢ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾

أيها المؤمنون، لا تستحلوا ما حرمه الله - سبحانه وتعالى - في أشهر الحج: شوال وذي القعدة، وذي الحجة، ولا تستحلوا ما أهدي إلى البيت العتيق من بهيمة الأنعام وما قلد في أعناقها وأصبحت خالصة لمساكين الحرم، فلا يجوز لكم أن تتعرضوا لها بصد عن البيت أو باغتصاب، ولا يجوز لكم أن تتعرضوا بالأذى أو القتال لمن قصدوا البيت الحرام يريدون عبادة مولاهم وطاعته من الحج والعمرة، ولكنكم إذا فسختم الإحرام وخرجتم من النسك، جاز لكم صيد البر الذي كان محرَّمًا عليكم، ولا يحملنكم كرهكم الأعداء الذين ردوكم عن المسجد الحرام ومنعوكم من أداء النسك، لا يحملنكم هذا العداء على أن تعتدوا عليهم، فإن الله لا يحب الظلم ولا يرضاه، ولو كان على العدو، فإن الدين جاء بالعدل مع الإنسانية كافة، ومختلف البشر ولو كانوا كفارًا، وحرّم الله الظلم حتى على غير المسلم، وعليكم أن تتعاونوا فيما بينكم على كل خير وصلاح وتقوى، فالمعاونة على البر هي معاونة على فعل كل ما يحبه الله ورسوله، والمعاونة على التقوى اجتناب كل ما حرّمه الله ورسوله، واحذروا أن يكون تعاونكم على الإثم (وهو ذنب النفس) والعدوان (وهو ظلم الناس)، وعليكم بمراقبة الله - عز وجل - في كل أموركم وخشيته؛ لأنه - سبحانه وتعالى - صاحب القوة التي لا تُقهر، والعذاب الذي لا يُطاق، والعقاب الذي لا يستطاع له، لمن خالفه وعصى أمره وارتكب نهيه.

٣ ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ وَٱلدَّمُ وَلَحۡمُ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ٱلۡيَوۡمَ يَئِسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن دِينِكُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِۚ ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ فِي مَخۡمَصَةٍ غَيۡرَ مُتَجَانِفٖ لِّإِثۡمٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

واعلموا أن الله حرّم عليكم الميتة، وهي التي ماتت حتف أنفها من غير تذكية شرعية، وحرّم الله - سبحانه عليكم - الدم المسفوح كالذي يتدفق في أثناء الذبح، وحرّم عليكم لحم الخنزير بعينه حتى لو ذُبح على ذكاة شرعية فإنه نجس الذات لا تُحِلُّه ذكاة، ومحرّم عليكم ما ذُبح لغير الله كالذي ذبح على الأصنام والأنصاب والأوثان وذبح للكهان والعرافين، ونحوهم، وحُرمت عليكم المنخنقة التي ماتت بالخنق بحبل ونحوه، أو تردت من رأس جبل أو مرتفع، أو غرقت، أو التي نطحتها بهيمة أخرى فماتت، أو ما أكله الذئب والأسد ونحوه ثم مات بعد ذلك إلا إذا أدركتم أنتم ذكاته قبل أن يموت فذبحتموه ذبحًا شرعيًا، ولا يجوز لكم أن تستقسموا بالأقداح، فهو من عمل الجاهلية وصنع المشركين، وقد كانوا يأخذون ثلاثة أسهم على أحدها مكتوب: اخرج، والثاني: لا تخرج، والثالث: ليس عليه شيء، فإذا أراد أحدهم سفرًا أقرع بينها فإن ظهر له الأمر اخرج خرج، وإن ظهر له النهي بقي، وأما الذي ليس مكتوبا عليه شيء فإنه يعيد القرعة مرة ثانية، وهذا من عمل الجاهلية، وهو خروج عن طاعة الله -عز وجل- وعن دينه، ثم بيَّن - سبحانه وتعالى - أن الكفار قد انقطع أملهم في أن تعودوا عن دينكم، وانتهى رجاؤهم في أن تتركوا إسلامكم، فعليكم بالخوف من الله وعدم خوفهم، فقد أعز الله دينه ونصر عبده وأعلى كلمته، واعلموا أن الله قد أكمل لكم الدين بإنزال الكتاب والسنة وتعليم شرائع الإسلام وبيان الحلال والحرام، فلا تجوز الزيادة في هذا الدين، ومن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد، وقد أتم الله عليكم النعمة بإرسال محمد - عليه الصلاة والسلام - ونزول الوحي عليه، وهي من أجلّ النعم وأعظم العطايا من رب العالمين، ولك رخصة - أيتها الأمة - أن من ألجأته الضرورة والمجاعة الشديدة إلى الأكل فإنه يجوز له أن يتناول ما حرم عليه ما دام أنه ليس مائلاً إلى الأكل تلذذًا أو مجاوزًا إلى حد الرخصة، أو أراد هو مخالفة النهي، فلا بأس إذا اضطر العبد إلى أن يأكل بقدر حاجته من المحرمات؛ لأن الضرورات تبيح المحظورات، وهذا من سهولة دين الله، ومن يسر شرعه، وهذا منهج الحنيفية السمحة، واعلموا أن الله - سبحانه وتعالى - يغفر الزلات ويرحم من تاب من الخطيئات، ففضله واسع، وعطاؤه جزيل لا إله إلا هو.

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾

يستفتيك - يا محمد - الناس ما الذي أباح الله سبحانه وتعالى؟! فأخبرهم أن الله أباح لهم كل طيب، وهو النافع المفيد الذي ليس بخبيث قذر، وضار متلف، وحرّم عليهم ما استقذرته النفوس وعافته الطباع السليمة، وكرهته الأنفس المستقيمة مثل: الخنزير والكلاب والفئران، فإن الرسول ﷺ أتى ليحل الطيبات، وهي ما ينفع الجسم ولا يضر العقل ولا يتلف الحياة، ولا تتقذر منه النفس، وأتى بتحريم الخبائث، وهي كل ما فيه ضرر، أو ما استقبح واستقذر، ويجوز لكم صيد ما علّمتم من الجوارح مثل: صيد الكلب المعلم، والصقر، والباز ونحوها، والمُعَلَّمُ هو الذي ينطلق إلى الصيد إذا أرسلتموه، ويرتدع إذا ردعتموه، ولا يأكل من الصيد، وتذكرون اسم الله عليه إذا انطلق، فهذه الكلاب يشترط فيها أن تكون مُعَلّمَةً، وهذا ينبئك عن فضل العلم، حتى إن الله أباح صيد المعلَّم وحرّم صيد الكلب الجاهل، وعليكم بتقوى الله- سبحانه وتعالى - في كل أموركم ومراقبته والانتهاء عند نهيه وامتثال أمره، فهو - سبحانه وتعالى - سوف يحاسب الجميع؛ فعقابه أليم لمن عصاه، وثوابه عظيم لمن أطاع أمره واتقاه، فعند قيامكم بأي عمل تذكروا ذاك اليوم يوم الحساب.

﴿ ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

بعد إرسال محمد - عليه الصلاة والسلام - أباح الله لكم كل نافع مفيد طيب طاهر من الطعام والشراب، وأحلّه لكم رحمةً بكم بعد أن حرّم بعضه عمن كان قبلكم، وأباح الله لكم طعام اليهود والنصارى وذبائحهم؛ لأنهم أهل كتاب

بخلاف ذبائح المشركين فإنها محرّمة، وقد أحلّ الله لكم الزواج من العفيفات المؤمنات والعفيفات اليهوديات والنصرانيات، ولا يجوز لكم أن تجاهروا بمعصية الله -عز وجل- بالزنا واتخاذ العشيقات والصديقات والفجور بهن، ومن يكفر بعد إيمانه بآيات الله فعمله محبط وقد باء بالإثم وعاد بالخسران وأدركه الخذلان؛ لأنه عصى مولاه وخالف أمره وارتكب نهيه وخرج عن طاعته.

٦ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾

أيها المؤمنون، إذا أردتم أن تصلُّوا فعليكم بالوضوء الشرعي، فابدؤوا بغسل وجوهكم ويدخل في ذلك المضمضة والاستنشاق، ثم اليد اليمنى إلى المرفق، واليد اليسرى إلى المرفق، ثم امسحوا الرأس مسحةً واحدة، وعليكم بغسل أرجلكم إلى الكعبين، فإن الأرجل في الآية معطوفة على الأيدي فلا يجوز مسحها إذا لم تكن في خف أو جورب، وإنما تغسل غسلاً، وإذا أصابتكم جنابة فاغتسلوا، لكن إذا كنتم مرضى ويضركم الغسل أو كنتم مسافرين وليس عندكم ماء فعليكم بالتيمم، وإذا خرجتم إلى قضاء الحاجة أو جامعتم النساء ولم تجدوا ماءً فالتراب الطاهر يكفيكم، فتمسحوا به على طريقة التيمم الشرعي، والله - سبحانه وتعالى - بهذه الأحكام أراد بكم الخير واليسر والسهولة، وما جعل عليكم حرجًا في الدين ولا ضيقًا في التشريع، وإنما سنّ لكم الرخص وأمركم بما تطيقون، ووضع عنكم الآصار والأغلال؛ ليطهركم بهذه الرسالة وبهذه التعاليم الربانية، ويزكي أرواحكم، ويصلح أنفسكم، وييسر لكم أموركم، ولعل هذا يحملكم على شكره - سبحانه وتعالى - ومعرفة نعمته والعمل بطاعته واجتناب نهيه.

٧ ﴿ وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾

وتذكروا أيها المؤمنون ما أنعم الله به عليكم من إرسال رسوله محمد ﷺ، وإنزاله الكتاب عليه بعد أن كنتم مشركين في جاهلية جهلاء، فهداكم هذه الهداية العظيمة ووفقكم هذا التوفيق الكبير، وتذكروا أنكم عاهدتم الله وعاهدتم رسوله على طاعة الله وطاعة الرسول في مثل بيعة الرضوان وغيرها من العهود والمواثيق، واستجبتم وقلتم سمعنا وأطعنا، لا كما قال اليهود سمعنا وعصينا، فأنتم أحسنتم استماع القول، وأردفتم ذلك بالعمل، فعليكم بتقوى الله -عز وجل- في أن تنفذوا الأوامر وتجتنبوا النواهي، فإن الله لا تخفى عليه خافية، فعلمه واطلاعه - سبحانه وتعالى - كافٍ للعبد أن يرتدع عما نهى وأن يفعل ما أمر، وأن يراقب ربه في كل صغيرة وكبيرة.

٨ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴾

يا أيها المؤمنون، قوموا بالشهادة على الوجه الصحيح، وراقبوا الله في أدائها واحترسوا من شهادة الزور، فأدوا الشهادة بعدل وصدق، ولا تأخذكم في الله لومة لائم، ولا يحملنكم عداوة المشركين وبغض الكافرين على ألا تعدلوا في الشهادة معهم وعليهم، بل قولوا كلمة الحق حتى ولو كانت لصالح عدوكم؛ فالعدل هو أقرب للتقوى، وهو الذي قامت عليه السموات والأرض، وهو الذي أمركم الله به، فلا تحملنكم قرابة القريب على الشهادة له، ولا عداوة العدو على الشهادة عليه، وعليكم بتقوى الله - سبحانه وتعالى - وخشيته في أداء الشهادة، والحذر كل الحذر من شهادة الزور، فإن الله لا تخفى عليه خافية، فعلمه - سبحانه وتعالى - بعملكم، واطلاعه على حالكم، وسماعه لأقوالكم، ثم محاسبتكم على ذلك يوجب خشيته جل في علاه.

٩ ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٞ ﴾

والله - سبحانه وتعالى - وعد وعدًا صادقًا كل من آمن به وصدق رسوله وعمل الخيرات المأمور بها واجتنب المنكرات أن يغفر ذنوبه، ويستر عيوبه، وأن يُعِدَّ له جنات النعيم في مقام كريم. وفي جوار رب رحيم؛ جزاءً لفعله الجميل ولسعيه المشكور.

١٠ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾

وبالمقابل وعد الله - سبحانه وتعالى - من كفر به وكذب رسله وخالف شريعته بنار جهنم خالدًا مخلدًا فيها، فبئس الدار هي دار القرار، ففيها النكال وشدة العذاب لمن أشرك بالله وكفر به.

١١ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾

تذكروا أيها المؤمنون ما أنعم الله به عليكم وتفضل بحماية رسوله ﷺ وحمايتكم من كيد اليهود والمشركين، وكف الله - سبحانه وتعالى - أيدي اليهود حينما مكروا بالرسول ﷺ وخططوا لاغتياله وأرادوا أن يلقوا صخرة عليه، فمنعهم الله - سبحانه وتعالى - وحمى رسوله وعصمه منهم؛ فعليكم بتقوى الله - سبحانه وتعالى - فإن من اتقى الله - سبحانه وتعالى - نصره على عدوه وأيده وأعلى شأنه، وعليكم في كل الأمور خاصةً في مصاولة الأعداء وفي ملاقاة الكفار بالتوكل على الله -عز وجل-، فإن أقوى الناس من فوّض الأمر إلى الله واعتمد عليه ورضي به كفيلاً وحسيبًا ووكيلاً، وسينصره ربه ويخزي عدوه.

١٢ ﴿ وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾

واعلموا أن الله قد أخذ المواثيق والعهود الغليظة على اليهود، ولكنهم نقضوها ونكثوها، فاحذروا أن تفعلوا فعلهم، وأن تسيروا سيرتهم فتنالوا جزاءهم، فإن الله قد أخذ العهد والميثاق على بني إسرائيل، واختار منهم موسى اثني عشر رجلاً كالعرفاء والرؤساء عليهم حتى يلزموهم العهد والميثاق، ووعدهم - سبحانه وتعالى - أن ينصرهم وأن يعينهم وأن يسددهم متى ما أحسنوا إقامة الصلاة وأدوا ما عليهم من الزكاة، وصدّقوا برسالته - سبحانه - واتبعوا رسوله وناصروا وقاموا معه وجاهدوا الأعداء في صفه، وأنفقوا أموالهم في وجوه الخير، فوعدهم - سبحانه وتعالى - أن يمحو خطاياهم، وأن يغفر زلاتهم، وأن يتجاوز عن سيئاتهم، ثم يدخلهم جنة عدن، تلك الجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، ولكن من خالف بعدما قامت عليه البينة واتضحت له المحجة ارتكب خطأً بينًا وضلالاً فاحشًا واتجه وجهة غير مرضية وسار في طريق غير سليم.

١٣ ﴿ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ إِلَّا قَلِيلٗا مِّنۡهُمۡۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱصۡفَحۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

فبسبب هذا النقض طردهم الله من رحمته وأبعدهم عن رضوانه، وجعل قلوبهم فظة غليظة قاسية لا تلين لحق، ولا تستفيد من موعظة، ولا تنتفع بذكرى، وصاروا بهذا النقض يغيرون كلام الله - سبحانه وتعالى - ويبدلون المعاني ويصرفون الألفاظ عن مراداتها زيغًا وضلالاً وغيًا وعدوانًا، ثم إنّ هذه الذنوب أنستهم العلم النافع فصاروا لا يذكرون الأدلة، وخرج من قلوبهم نور العلم، وهذا من شؤم المعصية؛ فإنها تنسي صاحبها العلم النافع، وهؤلاء اليهود لا تزال

- يا محمد - تلقى منهم من الخيانات ونقض العهود ونكث المواثيق ما يظهر لك كل يوم إلا بعضهم ممن أسلم كعبد الله بن سلام وغيره، فعليك أن تتجاوز عنهم وأن تسامحهم حتى يقضي الله بقضائه ويريك فيهم الحق، وقد أراه - سبحانه وتعالى - فأمره في النهاية بمقاتلتهم بعد أن أمره بأن يعفو عن سيئاتهم، وأن يصفح عن معاقبتهم، وأخبره أن من أحسن في المعاملة ولزم العدل أثابه الله.

﴿١٤﴾ ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾

ومن الذين ادعوا أنهم نصارى وقالوا: إنهم أنصار الله، ولم يثبت لهم الله ذلك الوصف، بل قال: إنهم أدعياء بألسنتهم فقط، هؤلاء أخذ الله عليهم العهود الغليظة والمواثيق القوية فنكثوها ونقضوها من بعدما ذُكّروا بها، ابتلاهم الله - عز وجل - بأن ألزمهم العداوة فيما بينهم، وجعل الحرب بين فرقهم، فالنصارى متباغضون كفرقة البروتستانت والكاثوليك، وهذا العداء سوف يستمر إلى يوم القيامة، وهو جزاء نقضهم الميثاق وعصيانهم ربهم - سبحانه وتعالى - وسوف يحاسبهم الله على هذه الأفعال القبيحة، وهذا النقض وهذه المخالفات؛ ليوفي كلاً بعمله.

﴿١٥﴾ ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ﴾

أيها اليهود والنصارى، قد جاءكم محمد بن عبدالله ﷺ ليوضح لكم ويشرح لكم كثيرًا من الآيات والمعجزات التي مرت عليكم مع أنبيائكم السابقين، ويخبركم بالأخبار التي نزلت عليكم في التوراة والإنجيل، كآية الرجم، وقصة أصحاب السبت، ونتق الجبل، وضرب الصخرة وانفجار الماء منها، وفلق البحر، والمسخ إلى القردة والخنازير وغيرها، وهذا النبي يسكت عن كثير من تلك الآيات والمعجزات فلا يفضحكم بذكرها، وإنما يتجاوز عنها، فاعلموا أن الله - سبحانه وتعالى - قد بعث محمدًا بنور عظيم في كتابه الحكيم، وبدليل واضح وحجة قاهرة وآية باهرة في هذا الكتاب العظيم الذي فيه خبر الغيب، ولولا أنه نبي صادق ﷺ ما كان أخبركم بشيء لم تُخبروا به أنتم أصلاً، ولم يدرِ به إلا نبي.

﴿١٦﴾ ﴿يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾

وهذا الكتاب العظيم الذي أنزل على الرسول ﷺ، يوفق الله من عمل به وامتثله إلى العمل الصالح الذي يوصله إلى رضوان الله، وإلى هدايته وسلوك ما يحبه والفوز بجنته، والنجاة من غضبه وناره، وهذا الكتاب يُخرج من اتبعه واقتفاه وعمل بما فيه من ظلمات الجهل والشرك والشبهات والشهوات والمخالفات إلى نور الهداية وإلى وضوح المحجة وإلى صدق البرهان وإلى رضا الرحمن؛ ففيه الهداية المطلقة والعامة والخاصة، والنور المبين الواضح، والنجاة والعصمة من كل زيغ.

﴿١٧﴾ ﴿لَّقَدۡ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ أَن يُهۡلِكَ ٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗاۗ وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾

الذين قالوا من النصارى إن عيسى ابن مريم إله كفروا بالله وخرجوا عن دينه، فعيسى عبد من عباد الله -عز وجل- هو وأمه، ثم قال الله للنصارى: من الذي يدفع العذاب عن عيسى وعن أمه مريم إذا أراد الله تعذيبهما، ومن الذي يحميهما؟ فإن عيسى عبد من عباد الله تحت حكم الله وتدبيره وتصريفه لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا يملكون موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، والله - سبحانه وتعالى - إذا أراد بعيسى وأمه هلاكًا أو أراد أن يهلك أهل الأرض جميعًا فمن الذي يرده؟ ومن الذي يمنعه سبحانه وتعالى؟! فهو الإله لا إله إلا هو، له ملك السموات والأرض وملك ما

فيهما، وهو خالقهما ومدبرهما ومصرفهما، وهو - سبحانه - يخلق ما يشاء كيف يشاء، فخلق آدم من تراب بلا أب ولا أم، وخلق زوجه من غير أم، وخلق عيسى من أم بلا أب، وخلق سائر الناس من أم وأب، فهو على كل شيء قدير، لا يعجزه شيء ولا يغالبه مغالب، ولا يخرج عن قدرته أمر -جل في علاه-.

﴿١٨﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾

اليهود يقولون: إنهم أبناء الله وأحبابه من دون الناس، وكذلك النصارى يدّعون هذه الدعوى، وهذا كذب وزور وبهتان؛ فالله لم يتخذ أبناء من عباده، وأحبابه هم أهل طاعته وعبادته، ولو كان اليهود والنصارى صادقين في هذا ما عذبهم الله بذنوبهم، فإن المحبَّ لا يعذب حبيبه، بل هم كسائر الناس، من اتقى الله منهم أثابه، ومن عصى الله منهم عاقبه، والله - سبحانه وتعالى - له الحكمة المطلقة والملك المطلق، يغفر لمن يشاء من العباد ويعذب من يشاء؛ لأنه الخالق وحده والرازق، والإله لا إله سواه، وإليه يعود الخلق ليجازيهم على أفعالهم جميعًا.

﴿١٩﴾ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

يا معشر اليهود والنصارى، قد بعث الله لكم محمد بن عبدالله ﷺ بعد انقطاع من الرسالات، وبين عيسى ومحمد - عليهما الصلاة والسلام - ما يزيد على خمسمئة، فالآن أتى الله برسوله ﷺ رحمةً للعالمين، جاء يبشر الطائعين برحمة الله وجنته، وينذر العصاة بغضبه وعقابه، فهو - أيضًا - يبشركم إذا أطعتم الله واتبعتم رسوله؛ لأنه يصدق ما جاء به موسى وعيسى، وينذر ويخبر بما جاءا به، فاستقيموا على أمر الله، وأجيبوا داعي الله، واتبعوا رسول الله، فالله - سبحانه وتعالى - قديرٌ على إثابة الطائع ومعاقبة العاصي.

﴿٢٠﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾

واذكر - يا محمد - للناس يوم قال موسى لبني إسرائيل تذكروا نعمة الله عليكم وأفضاله يوم اختار منكم أنبياء وشرّفكم برسلٍ من بين أظهركم، وجعلكم في النعيم والخير والترف كالملوك بعد أن كنتم عبيدًا لفرعون وقومه، فأنعم عليكم بالحرية والاستقلال والخروج من مصر بعد الاستبداد والظلم والقهر، وآتاكم من الآيات ما لم يؤت أحدًا من العالمين مثل: فلق البحر وانبجاس الحجر، وتظليل الغمام والمن والسلوى وما خصّكم الله - سبحانه وتعالى - من العلوم ووجود الحكماء والعلماء والقادة والمصلحين منكم.

﴿٢١﴾ ﴿يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾

وقال لهم موسى يا بني إسرائيل: هيا تعالوا معي لنفتح بيت المقدس هذه الأرض المباركة الطاهرة ونسكن فيها ونقيم شرع الله فيها، فقد كتب الله - سبحانه وتعالى - أن تكونوا أهلاً لهذه الأرض متى استقمتم على دينه واتبعتموني، وإياكم أن تخالفوا أمر الله وتتركوا طاعته فيسلب عنكم العز، ويمنع عنكم النصر، ويكتب عليكم الذِّلة، ويطبع على قلوبكم المسكنة، وتكونون مقهورين من عدوكم.

﴿٢٢﴾ ﴿قَالُوا۟ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ۖ فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ﴾

فرد اليهود على موسى ردًا قبيحًا ينبئ عن جبنهم وهلعهم وخوفهم وذلّتهم وقالوا: يا موسى لا نستطيع دخول بيت المقدس؛ لأن فيها أقوامًا أشداء وشجعان ولا نستطيع مواجهتهم، لكن ننتظر ونصبر حتى يخرج هؤلاء الأقوياء الشجعان من تلك الأرض، فإذا خرجوا منها دخلنا فيها بلا قتال ولا جهاد، فلا نستطيع المواجهة ولا مصاولة

الأعداء، وهذا لما كتب الله في قلوبهم من الذلة والجبن بسبب مخالفاتهم للأوامر ونقضهم للعهود، فإن المعاصي من أعظم ما تصيب الأمم بالوهن والذلة والهزيمة أمام أعدائها.

﴿٢٣﴾ ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾

لكنَّ رجلين من المؤمنين كانا مع موسى ممن أنعم الله عليهما بالهداية وثبات القلوب وصحة العقول قاما وطلبا من اليهود أن يدخلوا، وأن يجاهدوا ولا يخيفهم العدو، فالواحد القهار أقوى من الكفار، وقالا لهم: توكلوا على الله - سبحانه وتعالى - وبإذن الواحد الأحد إذا دخلتم عليهم انهزموا أمامكم؛ لأنكم إذا صدقتم مع الله كان الله معكم، ومن كان الله معه فلا يخاف أحدًا، فسوف يهزم عدوه، وينال العزة والكرامة وتكون له العاقبة بإذن الله من صدق وآمن واتقى.

﴿٢٤﴾ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَآ أَبَدٗا مَّا دَامُواْ فِيهَاۖ فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾

فأعاد اليهود السفهاء كلام العصيان والتنكر للواحد الديان، وقالوا لموسى: لا تتعب نفسك ولا تحاول معنا فلن ندخل الأرض المقدسة أبدًا ما دام هؤلاء الجبابرة فيها، فقد عزمنا وصممنا ألا نواجههم، فإن كنت تريد قتالهم فلا دخل لنا في ذلك، فسر ومعك ربك فجاهد الأعداء، أما نحن فسوف ننتظر النتيجة في أماكننا، وهذا جواب مخزٍ وكلام قبيح فيه من الاستهانة والسخرية والاستهزاء ما الله به عليم، وانظر إلى هذا ووازنه بقول أصحاب رسول الله ﷺ الكرام في بدر: والله لا نقول كما قالت بنو إسرائيل لموسى اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون، ولكن نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، والله لنقاتلن من بين يديك وعن يمينك وعن شمالك ومن خلفك، فياله من جواب ضافٍ شافٍ، ويالسخف جواب اليهود وحقارته.

﴿٢٥﴾ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ إِلَّا نَفۡسِي وَأَخِيۖ فَٱفۡرُقۡ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾

حينها دعا موسى ربه قال: يا رب تعلم أني لا أقدر إلا على نفسي وأخي هارون، أما هؤلاء فلا طاقة لي بهم فقد خالفوا أمري وعصوني، فاجعل بينهم وبيني الفراق، فقد مللتهم وكرهتهم لنقضهم العهود، ونكثهم المواثيق وخروجهم عن طاعتك وعصيانهم أوامرك، فلا أريد أن أصحبهم وأعيش بين أظهرهم.

﴿٢٦﴾ ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيۡهِمۡ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗۚ يَتِيهُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۗ فَلَا تَأۡسَ عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾

فأخبر - سبحانه وتعالى - موسى أن هذه الأرض المقدسة حرام على هذا الجيل من بني إسرائيل مدة أربعين عامًا جزاء عصيانهم وتركهم الجهاد حتى ينقرض هذا الجيل الجبان الذليل الفاشل، ويأتي جيل آخر شجاع مجاهد؛ ليواجه الأزمات ويتحدى الأعداء، وهؤلاء الذين عصوا الأمر ابتلاهم الله -عز وجل- بالضياع في الصحراء مدة أربعين عامًا، وهذه قصة التيه المشهورة؛ فكانوا يمشون سائر النهار فإذا أظلم عليهم الليل ثم أصبح الصباح وجدوا أنفسهم في المكان نفسه لا يهتدون سبيلاً للخروج من هذه الضائقة؛ لأنهم كما ضلوا في المنهج أضلهم الله في الأرض، وكما ضلوا عن الصراط المستقيم أضلّهم الله في الطريق، فلا يهتدون، ثم قال لموسى: لا تحزن على هؤلاء الأشرار الفجار فإنهم خارجون عن الطاعة، وكل عاصٍ لا يُحزن على فراقه، ولا يندم المرء على ذهابه، ففي فراقه البركة، وفي الانفصال عنه الخير والرشد.

﴿٢٧﴾ ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱبۡنَيۡ ءَادَمَ بِٱلۡحَقِّ إِذۡ قَرَّبَا قُرۡبَانٗا فَتُقُبِّلَ مِنۡ أَحَدِهِمَا وَلَمۡ يُتَقَبَّلۡ مِنَ ٱلۡأٓخَرِۚ قَالَ لَأَقۡتُلَنَّكَۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾

وقصَّ عليهم - يا محمد - خبر ابني آدم هابيل وقابيل، قصة بريئة من الكذب الذي نُقل عن الأمم السابقة، ولكنها مدعومة بالصدق والدليل الواضح التي لا تشوبه شائبة، فإن هابيل وقابيل قرّبا إلى الله - سبحانه وتعالى - قربانًا،

فالله - عز وجل - تقبل من هابيل لإخلاصه وصدقه، ولم يتقبل من قابيل لسوء نيته ولقبح سريرته، فغضب قابيل على هابيل وحسده وبغى عليه وأقسم له ليقتلنّه، فحاوره هابيل وقال: ولمَ تقتلني ولم أرتكب ذنبًا وما ظلمتك؟ فقال له قابيل: لأن الله تقبّل منك ولم يتقبل مني. فبين له هابيل أن الله - سبحانه وتعالى - يتقبل ممن أخلص في نيته، وصدق في طويته، وأراد بعمله وجه الله، ولم يعارض حكم الله، فما هو ذنبي إذًا؟!

٢٨ ﴿ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقۡتُلَنِي مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٖ يَدِيَ إِلَيۡكَ لِأَقۡتُلَكَۖ إِنِّيٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

ثم قال له هابيل في أدب وسكينة: لئن مددت يدك نحوي لتقتلني ظلمًا وعدوانًا فلن أفعل مثلك ولا أمد يدي إليك لأقتلك؛ لأنني أخاف الله ربي وأخشى لقاءه، فلن أقدم على عمل يغضبه سبحانه.

٢٩ ﴿ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثۡمِي وَإِثۡمِكَ فَتَكُونَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

إني أريد حين أمتنع عن قتلك أن ترجع بذنبي لأني لم أقتلك، وذنبك لأنك قتلتني فتصير من أهل النار، وذلك المصير المشؤوم جزاء الظالمين الذين لا يفلتون من عدل الله.

٣٠ ﴿ فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴾

فزّينت له نفسه الأمارة بالسوء، وحسّنت له قتل أخيه ظلمًا وعدوانًا، فقتله وهو أخوه وشقيقه، فارتكب جُرم العدوان على نفس معصومة، وجُرم قتل الأخ الشقيق، فلما قتله أصبح من المبعدين عن رحمة الله، الخارجين على طاعة الله، العائدين بالخسار والغبن في الصفقة، والهلاك في الآخرة.

٣١ ﴿ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابٗا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ﴾

فأراد الله أن يضرب له المثل والعبرة، ويريه كيف يستر أخاه بعد أن قتله، فأرسل الله غرابًا فتقاتل هو وغراب آخر، فلما قتل الغراب أخاه واراه الثرى، فقال قابيل لما رأى صنيع الغراب بأخيه: ما لي لم أهتد وأنا إنسان إلى أن أفعل مثلما فعل هذا الغراب وهو طائر فأستر أخي بالتراب، فندم على أنه لم يكن كالغراب، ولو ندم قابيل على قتل أخيه ندامته على أنه لم يستطع أن يواريه لتاب عليه باريه، وكما في الحديث: «**الندم توبة**»، ولكنه ندم على عدم محاكاة الغراب ولم يندم على قتل أخيه وإهدار دمه.

٣٢ ﴿ مِنۡ أَجۡلِ ذَٰلِكَ كَتَبۡنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفۡسَۢا بِغَيۡرِ نَفۡسٍ أَوۡ فَسَادٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَمَنۡ أَحۡيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحۡيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۚ وَلَقَدۡ جَآءَتۡهُمۡ رُسُلُنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡأَرۡضِ لَمُسۡرِفُونَ ﴾

فلما حصل العدوان على النفوس المعصومة وسُفك الدم أراد الله - سبحانه وتعالى - أن يحرّم ذلك على بني إسرائيل فجعله في كتابهم التوراة، وأنزله على ذلك، وأوجب عليهم - سبحانه وتعالى - أن من اعتدى على نفسٍ معصومة بغير نفس أخرى، فمثله كمن قتل الناس أجمعين؛ لأن أصل الناس من نفس واحدة فكأنها مثل الناس، ومن أعتقها من رقها وأنقذها من موتها فكأنما أحيا كل الناس، وبنو إسرائيل أتتهم البراهين الساطعة من الله والأدلة على تحريم قتل الأنفس وسفك الدماء، ولكنهم قتلوا الأنبياء، وسفكوا الدماء وذبحوا الأبرياء، وأغضبوا رب الأرض والسماء، فكثير من بني إسرائيل مسرف على نفسه في الخطايا، مقترف للسيئات ناكث للعهود ناقض للعقود.

٣٣ ﴿ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

ثم بيّن - سبحانه وتعالى - جزاء المحاربين الخارجين على جماعة المسلمين، فأخبر - سبحانه وتعالى - أن الحد فيهم - وهم الذين يسعون في الأرض فسادًا بالقتل وغصب المال وتخويف الآمنين - فتقتيلهم وتصليبهم على الخشب

وفي الأعمدة ونحوها ليكونوا عبرة للمعتبرين، أو قطع أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو نفيهم من الأرض وإخراجهم من الوطن وتشريدهم من مساكنهم، وهذا الأمر عار لهم في الدنيا، وذلّة ومهانة، وفي الآخرة أعدّ الله لهم العذاب العظيم، فمن قتل قُتل، ومن قَتَل وأخذ المال قُتل وصُلب، ومن أخذ المال ولم يقتل قطِّعت يداه ورجلاه من خلاف، ومن أخاف الآمنين ولم يقتل ولم يأخذ مالاً نُفي من وطنه.

﴿٣٤﴾ ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

إلا إذا كان هؤلاء المحاربون قد تابوا وندموا على ما فعلوا قبل أن يُلقي عليهم الولاة القبض، وقبل أن يسلموا أنفسهم للعدالة، فإن الله يتوب على من تاب، ولا يؤاخذون من قِبل وليّ الأمر، فإن الله يتجاوز عن ذلك، وهذا تحبيب للتوبة ليقلع من أفسد عن الفساد، وليدخل في جماعة المسلمين وليرضى بالعفو من الله - سبحانه وتعالى - فإن الله واسع المغفرة، رحيم بعباده -جل في علاه-.

﴿٣٥﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾

أيها المؤمنون، يا من آمنتم بالله وصدقتم رسوله، اخشوا الله وخافوا عقابه وراقبوه في أوامره ونواهيه، واجتهدوا في عمل صالح يكون بينكم وبين الله وسيلة وسببًا للنجاة من غضبه والفوز برضوانه، وعليكم بالجهاد في سبيله بكل أنواع الجهاد بالنفس والمال واللسان والقلم؛ والفكر لتنالوا الفلاح الأبدي والخلود السرمدي ورضوان الباري - جل في علاه - الذي ما بعده رضوان.

﴿٣٦﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفۡتَدُواْ بِهِۦ مِنۡ عَذَابِ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنۡهُمۡۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

أما الكافرون الذين كذّبوا بالله -عز وجل- وبرسله فلو أن للواحد يوم القيامة مثل ما يملأ الأرض من الذهب والفضة والقناطير المقنطرة، ثم أراد أن يضعه فداءً له من غضب الله وعذابه في النار ما قَبِل الله هذا الفداء، بل يعذب صاحبه وينكّل به؛ لأنه أتى بأعظم ذنب في العالم، وأكبر خطيئة في الدنيا وهي الشرك بالله، فلن يقبل الله منه صرفًا ولا عدلاً ولا فداءً، ولا ينفعه شهيد، ولا يتولاه ولي، ولا يدفع عنه نصير، وله عذاب مؤلم عند الباري جل في علاه.

﴿٣٧﴾ ﴿ يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ﴾

يتمنى هؤلاء الكفار إذا دخلوا النار أن يخرجوا من عذاب الجبار، ولكنهم لا يخرجون من النار، بل هو خلود أبدي، ومكوث سرمدي؛ لأنهم أشركوا بالله، والمشرك لا يغفر الله ذنبه، فعذابه مقيم في الجحيم، وفي العقاب الأليم، جزاءً على فعله الأثيم.

﴿٣٨﴾ ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقۡطَعُوٓاْ أَيۡدِيَهُمَا جَزَآءَۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ ﴾

إذا سرق الرَّجلُ أو المرأة وقامت البينة وتوافرت الشروط في إقامة الحد، فإنه تُقطع يده أو يدها من مفصل الكف كما هو مبين في السنة المطهرة؛ جزاءً على هذا الفعل الشنيع، وعلى هذا الجرم الفظيع؛ لتحفظ أموال الناس وتُصان حقوقهم؛ ولئلا يهدد أمنهم؛ وليرتدع كل فاجر وسارق، وهذا حكمه سبحانه؛ لأنه عزَّ فحكم، فمن عزته قوته - سبحانه وتعالى - في إصدار الحكم بقهر وقدرة، ومن حكمته إنزال الحكم المناسب في مثل السرقة والقتل ونحوه، ولن تجد أحسن من الله حكما.

﴿٣٩﴾ ﴿ فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴾

إذا تاب السارق أو السارقة من بعد السرقة وأقيم عليه الحد وأصلح فيما بينه وبين الله وندم على ما فعل وتأسف غفر الله ذنبه، وستر عيبه، وأبدله مكان السيئات حسنات، فمغفرة الله واسعة، ورحمته عامة جل في علاه، فليطمع في فضله من زنا ثم تاب، أو من سرق ثم تاب، أو قتل ثم تاب، فإن الله تواب رحيم.

﴿٤٠﴾ ﴿ أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾

ألا تدري أن الواحد الأحد - سبحانه - له كل ما في السموات والأرض، ملكًا وخلقًا وعبيدًا فله نفوذ القدرة في خلقه، وله الحكم المطلق، يفعل ما يشاء، فله أن يعذب من أراد من العباد وعذابه عدل، وله أن يتفضل على من أحب من العباد ورحمته فضل، فهو - سبحانه وتعالى - له نفوذ الحكمة وتمام العلم، وهو على كل شيء قدير، لا يعجزه أحد ولا يغالبه مغالب ولا يخرج عن قدرته مخلوق، وسع كل شيء رحمة وعلمًا وعزة وحكمة وفضلاً ومقدرة.

﴿٤١﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾

يا رسول الله، لا تحزن ولا يضق صدرك من هؤلاء المنافقين الذين يتسابقون إلى الكفر تسابقًا، ويكذبونك بما جئت به، وهم في الظاهر يدّعون الإيمان وفي الباطن يبطنون الكفر، و - أيضًا - لا تضق ذرعًا بهؤلاء اليهود الذين كذبوك بما جئت به، فقد كذبوا رسلاً من قبلك وقتلوهم وآذوهم، وهؤلاء اليهود من صفاتهم أنهم يلقون أسماعهم للآثام وللزور وللافتراء والشائعات الباطلة ويقبلونها ويبثونها، ويسمعون لساداتهم وأمرائهم الذين منعهم الحسد أن يحضروا إليك أو يأتوا إليك؛ فهؤلاء اليهود الذين حضروا عندك إنما هم يتبعون ساداتهم وأمراءهم الذين لم يأتوا إليك أنفة وكبرًا، هؤلاء اليهود من صفاتهم أنهم يبدلون أحكام الله سبحانه وتعالى ويغيرون النصوص ويحرِّفون الكلام عن مقاصده وعن مراميه، وهم حينما أتوك يطلبون منك إقامة الحد على من زنا منهم من المحصنين قالوا فيما بينهم قبل أن يأتوك: إن حكم محمد بالجلد فاقبلوا حكمه، وإن حكم بالرجم فلا تقبلوا حكمه، (فأتوا الرسول ﷺ فقال ماذا تجدون في التوراة؟ قالوا: نجد الجلد على المحصن، وتحميم الوجه والتشهير به في الناس، فسأل أحدهم بالله الذي لا إله إلا هو الذي أنزل التوراة على موسى، فأخبره بالصحيح أن بالتوراة رجم الزاني المحصن، فنفذه - عليه الصلاة والسلام - وأقامه عليه) وهؤلاء اليهود مفتونون ضالون وأنت لا تملك أن تهديهم ما دام الله كتب عليهم الشقاء والضلال والطرد والإبعاد عن رحمته، فلا تستطيع مهما أوتيت من بيان ومن قدرة على الإقناع أن تهديهم سواء السبيل، والله - سبحانه وتعالى - ما أراد أن ينقي قلوبهم من الخبث ولا نفوسهم من الريب والشك والمرض؛ لأنهم استمرؤوا الكفر والتكذيب ومخالفة الواحد الأحد وإغضابه وسلوك ما يسخطه جل في علاه، فكتب الله عليهم العار والمهانة والذلة في الدنيا، ولهم عنده - سبحانه وتعالى - النكال والأخذ الشديد والعذاب الأكيد على ما فعلوه مع أنبيائه وكتبه ورسله.

﴿٤٢﴾ ﴿ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾

هؤلاء اليهود سمّاعون للأكاذيب وللزور وللبهتان ويتقبلونها وينشرونها في الناس، ويأكلون الرُّشَى والأموال المحرمة، فهم جمعوا بين الأقوال الآثمة والمطاعم المحرمة، ففسدوا في الأفهام وفسدوا في الأجسام، فإذا أتاك هؤلاء اليهود وطلبوا الحكم منك وأن تقيم عليهم الحدود فأنت مخيّر، إما أن تحكم بينهم أو أن تتركهم، فإن تركتهم فالله يتولاك ويعصمك منهم، فلن يضروك بأذى ولن يصلك منهم شر، وإن حكمت بينهم فاحكم بالعدل الذي أنزله الله في كتابه،

وتوخّ إقامة الحق فيهم، فإن الله يحب العادل ويكره الظالم، والعدل حتى مع الأعداء من اليهود والنصارى أو غيرهم من الأمم واجب على المسلم، وعلى الحاكم أن يتقي الله -عز وجل- فيسلك العدل ولا يظلم أحدًا.

﴿٤٣﴾ ﴿وَكَيْفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوْرَىٰةُ فِيهَا حُكْمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾

عجبًا لهؤلاء اليهود كيف يرضون بحكمك، وهم أصلاً لن يرضوا بحكم ما عندهم من الكتاب الذي نزل على نبيهم موسى، وهو التوراة، فإنهم بدّلوه وغيروه وحرّفوه ونقضوه وتولوا عن ذلك وأعرضوا، فهم ما استجابوا لنبيهم، فكيف يستجيبون لك، ولكن حملهم على ذلك الكفر والتكذيب، ولو صدّقوا بك وآمنوا بما أُنزل عليك لقبلوا بحكمك لكن هيهات.

﴿٤٤﴾ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ فَلَا تَخْشَوُا۟ ٱلنَّاسَ وَٱخْشَوْنِ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾

والله - سبحانه وتعالى - وحده هو الذي نزّل التوراة على موسى، فيها الحجة القاطعة، والدليل الشافي، والبرهان الكافي الذي يفرِّق بين الغي والرشاد، والعدل والجور، ويحكم بهذه التوراة أنبياء الله من بني إسرائيل لليهود الذين انقادوا لحكم الله -عز وجل- لا للخارجين عن طاعته والعاصين له، و - أيضًا - يحكم بهذه التوراة العلماء الربانيون الخائفون من ربهم، والفقهاء من بني إسرائيل الذين يرجون لقاء الله - سبحانه وتعالى - ويخافون أخذه؛ بسبب أن الله أمرهم بذلك وطلب منهم المحافظة على التوراة فلا يحرِّفونها ولا يبدِّلونها ولا يتلاعبون بنصوصها ولا يغيرون أحكامها، وأخذ عليهم العهد والميثاق في حفظ ذلك كله، فعليهم أن يخشوا ربهم وأن يراقبوه، ولا يأخذوا ويستبدلوا بآيات الله وشريعته شيئًا من عرض الدنيا الزائل الفاني، ولا من أموالها الرخيصة الخسيسة، ولا من مراداتها من الجاه والمنصب والوظائف الدنيوية فتعطل أحكام الله - سبحانه وتعالى - ويترك شرعه، ويطلب الفاني الزائل مكان الباقي الخالد عند الله، والذي لا يحكم بما أنزل الله -عز وجل- ويستبدل به شرعًا غيره ويرى أن حكم غير الله خير من حكم الله، فهو كافر خارج عن ملة الإسلام، مرتد على عقبيه؛ لأنه رضي بحكم غير الله ورفض حكم الله.

﴿٤٥﴾ ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ ۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُۥ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾

وقد أوجبنا على بني إسرائيل أن من قتل منهم نفسًا فإنه يُقتل بهذه النفس، ومن فقأ عين أخيه فُقئت عينه، ومن جدع أنفه جُدع أنفه، ومن صلَم أذنه صُلمَت أذنه، ومن كسر سنه كُسرت سنه، والجروح فيها القصاص، الجرح مثل الجرح إذا تساوى معه وتماثل؛ لئلا يكون في الأرض جورٌ أو ظلم أو عدوان، ولتحفظ أنفس الناس وجوارحهم، وليكون الإنسان في مأمن من عدوان أخيه عليه، لكن من اعتدي عليه فتنازل عن حقه وعفا فالله يكفّر عنه ذنوبه مقابل عفوه عن أخيه، وتَصَدُّقَهَ بهذا العفو والجارحة منه وبسبب تنازله عنه حقه، فالله يكافئه الثواب الجزيل، والذي لا يحكم بهذه الشريعة إنما هو معتدٍ مسيء مخالف لأمر الله، يدخل في عداد الظالمين الذين أعدّ الله لهم أشدّ العذاب.

﴿٤٦﴾ ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾

ثم أَتْبَعْنَا بعد أنبياء بني إسرائيل بعيسى ابن مريم، فإن الله أرسله لبني إسرائيل، وأنزل عليه الإنجيل فيه الأدلة الواضحة والنور الساطع والبيان الشافي، يصدّق ما في التوراة من الأحكام ولا ينسخها، وفيه بيان لكثير من الآداب والأخلاق، وفيه مواعظ تدل العبد على الرشاد، وتزجره عن الغي والفساد، ولا يستفيد من هذه المواعظ ولا من هذه الأحكام إلا من اتقى ربه وخاف مولاه وأصلح ما بينه وبين إلهه، فإن العلم ينفعه ولا ينفع غيره.

﴿٤٧﴾ ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾

أوجب الله على النصارى أن يحكموا بما أوجبه - سبحانه وتعالى - في الإنجيل، فإنه ما نزل على عيسى إلا ليُقام ما فيه من حكم، ويُجتنب ما فيه من نهي، ويُطاع أمر الله - سبحانه وتعالى - ولكن من لم يُحَكِّم أمر الله - سبحانه وتعالى - وشرعه فقد خرج عن طاعته جل في علاه، واستبدل بها شريعة غيرها، فمن لم يحكم بما أنزل الله فهو كافر ظالم فاسق، فهو خارج من الملة، ظالم لنفسه ولغيره لأنه استبدل شريعة الخلق بشريعة الحق.

﴿٤٨﴾ ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ۖ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ۚ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾

وأنت - يا محمد - قد شرفناك بإنزال القرآن عليك بالحق الذي يفرِّق بين الغي والرشاد، وهذا الكتاب يصدِّق الكتب التي سبقت مثل التوراة والإنجيل، ويثبت ما فيها من حق، ويرد ما فيها من تحريف أُدخل عليها، وهو ناسخ لكثير من الأحكام التي فيها كالمشقة والآصار والأغلال، فعليك - يا محمد - أن تحكم بما أنزل الله في كتابه، وفي السنة المطهرة، ولا تذهب مع مرادات الناس وأهوائهم، وتترك الوحي المنزّل، بل اتبع الحق، رضي من رضي وغضب من غضب، والشرائع مختلفة وأصل الدين واحد، وهو الإسلام فلليهود شريعة مفصّلة في الأحكام مُخَصَّصة لهم، وللنصارى أيضًا وللمسلمين، لكن الملة واحدة، إن الدين عند الله الإسلام، ولو أراد - سبحانه وتعالى - أن يجمع الناس جميعًا فيجعلهم أمةً واحدة على شريعة واحدة متفقين لفعل - سبحانه وتعالى - فإن قدرته نافذة، ولكن أراد - سبحانه - أن يمتحن العباد، وأن يفرّق بينهم في الشرائع؛ ليرى من يطيعه ممن يعصيه، ومن يصدق ويكذب، فعليكم أيها المؤمنون المسارعة إلى أفعال البر من طاعة الله -عز وجل- وتقواه، واتباع الرسول ﷺ والتصديق بلقائه فإنكم سوف تعودون إلى ربكم - سبحانه وتعالى - والمرد عنده، والخاتمة هناك، والمنتهى إليه، وسوف يسألكم ويجازيكم على ما قدمتم وما فعلتم، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر.

﴿٤٩﴾ ﴿ وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ ﴾

وعليك - يا محمد - أن تحكم حتى على اليهود أو غيرهم بما أنزله - سبحانه وتعالى - لا بالأهواء ولا باستحسانات النفوس، وأقم عليهم العدل وخذ حذرك منهم من أن يصرفوك عن الحق الذي أنزله الله عليك وأكرمك به، وهذه الآية نزلت في أناس من أحبار اليهود أتوا إلى الرسول - عليه الصلاة والسلام - قالوا: نحن نتبعك، وإذا تبعناك اتبعك اليهود؛ بشرط أن تحكم لنا على قومنا، فحذَّر الله رسوله من أن يفعل ذلك وحاشاه ﷺ، فإن حكمت بينهم بالحق ثم تولوا وأعرضوا ولم يقبلوا الحق الذي حكمت به، فاعلم أن الله - سبحانه وتعالى - يريد أن يعاقبهم على آثامهم وزورهم وجرمهم، وينكّل بهم بسبب ما اقترفوه وفعلوه، وإذا كان أكثر البشر خارجين عن طاعة الله -عز وجل- فإن القليل منهم شاكر، والنزر اليسير مؤمن، وإلا فأكثرهم جاحدون لآيات الله، مكذبون لشرائعه، خارجون على طاعته.

﴿٥٠﴾ ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

سبحان الله! يريدون حكم الجاهلية والهوى والزيغ ويرفضون حكم الله الذي هو الحق كله، والنور والصدق والعدل، يريدون حكم الخلق القاصرين الغافلين الجهلة ويتركون حكم الخالق العادل جل في علاه الحكيم العليم الخبير بكل شيء؛ هؤلاء قوم لا يصدقون، ولا يؤمنون، ولا يريدون الخير، فلا أحسن من حكم الله -عز وجل- عدلاً، وبيانًا، وحكمةً، ومصلحة، وخيرًا في الدنيا والآخرة، لكن هذا الحكم من الله لا يقدّمه ويفرح به إلا من رسخ الإيمان في قلبه وأحب مولاه وأطاعه.

٥١ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

أيها المؤمنون، يا من صدقتم بكتاب ربكم واتبعتم رسولكم، لا تجعلوا اليهود والنصارى أحبابًا لكم وأصدقاءً من دون المؤمنين توالونهم وتستنصرون بهم، وتضمرون لهم المحبة، فهؤلاء اليهود والنصارى بعضهم ينصر بعضًا، ويتولى بعضهم بعضًا عليكم، فهم متحزبون يدًا واحدة في حربكم، والذي يوالي اليهود والنصارى ويحبهم ويقدمهم هو في الحقيقة منهم؛ لأنه رضي بأعمالهم وأحبهم واتخذهم أولياء من دون المؤمنين، وهو في ذلك ظالم معتد، والله لا يهدي كل ظالم ولا يوفقه ولا يصلحه.

٥٢ ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ﴾

سوف تجد المنافقين يتسابقون في موالاة اليهود والنصارى بحجة الخوف من أن تصيب المسلمين حرب من اليهود والنصارى، فقالوا: نستبق الأحداث ونكسر شوكة اليهود والنصارى بهذه الصداقة، وقيل: إنهم يستعزون بهم ويستنصرون بهم على المسلمين ليتخذوا عندهم يدًا حتى لا يبطش المسلمون بالمنافقين، والله - سبحانه وتعالى - أخبر في كتابه: لعل الله أن يفتح للمسلمين مكة فيهلك أعداء الدين من المشركين ومن والاهم من اليهود والنصارى، أو يأتي الله - سبحانه وتعالى - بأمر من عنده في هلاك هؤلاء وإزالتهم، ونصر المسلمين عليهم، حينها يندم المنافقون على ما فعلوا من الموالاة لأعداء الله -عز وجل- والتحزّب معهم.

٥٣ ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ إِنَّهُمۡ لَمَعَكُمۡۚ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فَأَصۡبَحُواْ خَٰسِرِينَ ﴾

يقول المؤمنون لليهود: هؤلاء أعوانكم وأنصاركم من المنافقين الذين يظهرون لكم المودّة ويبطنون الكراهية، ويقسمون لكم إنهم معكم، هؤلاء أصلاً خاسئون أشقياء أذهب الله أعمالهم بالنفاق، وليس لهم عهد في الدنيا ولا أجر في الآخرة.

٥٤ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

أيها المؤمنون: من يرجع منكم عن دين الإسلام إلى دين الكفر فالله غني عنه وليس بحاجة إلى عبادته، وسوف يعوض الله الإسلام خيرًا منه، ويأتي بجند له يتولاهم ويحبهم، وهم يتولون الله ويحبونه، متواضعين لأهل الإيمان، أقوياء أشداء على أهل الكفر، يجاهدون في سبيل الله بأيديهم وألسنتهم وعلمهم وأقلامهم، وما عليهم من لوم اللائمين، ولا استهزاء المستهزئين؛ لقوة إيمانهم وثبات مبادئهم، وهذا فضل من الله - سبحانه وتعالى - عليهم فيما وفقهم إليه من الجهاد والحب والموالاة، وفضل الله واسع، لأنه - سبحانه وتعالى - لا يحد فضله حد، ولا يرد خيره راد؛ ولأنه - سبحانه وتعالى - عليم بمن يستأهل الفضل ويستحق الإحسان.

٥٥ ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمۡ رَٰكِعُونَ ﴾

أيها المؤمنون: الله هو وليكم لا هؤلاء اليهود والنصارى ولا المشركون، ووليكم رسوله ﷺ الذي أتى بهذا الدين، ووليكم المؤمنون الصادقون الذين يحافظون على الصلوات، ويؤتون الزكوات، وهم متواضعون لربهم، خاشعون لمولاهم، فهؤلاء الذين يجب أن توالوهم وأن تحبوهم.

٥٦ ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ﴾

والذي يحب الله ورسوله والذين آمنوا ويجعلهم أولياء ويستنصر بهم ويتحزَّب لهم، هو في الحقيقة منتصر والعاقبة له، وسوف يكون الله معه، من كان الرحمن وليه فلن يُهزم ولن يُغلب.

﴿٥٧﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمۡ هُزُوٗا وَلَعِبٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَٱلۡكُفَّارَ أَوۡلِيَآءَۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴾

أيها المؤمنون: احذروا أن تتولوا اليهود والنصارى والمشركين والمنافقين وتحبوهم وتطلبوا صداقتهم وقد استهزؤوا بدينكم وجعلوه مصدرًا للضحك، فهؤلاء أعداء في الحقيقة فَعَادُوا من عاداه الله، واحذروا من عقاب الله وغضبه إن كنتم مؤمنين بما يرشدكم إليه ربكم ويأمركم به.

﴿٥٨﴾ ﴿ وَإِذَا نَادَيۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوٗا وَلَعِبٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَوۡمٞ لَّا يَعۡقِلُونَ ﴾

هؤلاء الأعداء من أهل الكتاب والمنافقين إذا سمعوا الأذان للصلاة جعلوه مصدرًا للسخرية والاستهزاء والضحك؛ لاستهانتهم بربهم وخروجهم عن طاعته؛ ولشدة عداوتهم لكم، فليس لديهم خشية تمنعهم ولا عقل يردعهم، فهم مستحقون لعدائكم لا موالاتكم.

﴿٥٩﴾ ﴿ قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ هَلۡ تَنقِمُونَ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلُ وَأَنَّ أَكۡثَرَكُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾

قل - يا محمد - لأهل الكتاب: أيها اليهود والنصارى، هل تعيبون علينا وتنكرون منا إلا أننا صدقنا في الإيمان بربنا، واتبعنا رسولنا، وقمنا بما أمرنا الله به، وانتهينا عما نهانا عنه، وصدقنا بالقرآن وبما قبل القرآن من التوراة والإنجيل؟! أما أنتم فخرجتم عن طاعة الله -عز وجل-؛ فأي الفريقين أحق بأن يُعاب وأن يُنكر عليه؟!

﴿٦٠﴾ ﴿ قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾

لكن ألا أخبركم -أيها اليهود والنصارى- بمن كانت عاقبته سيئة وعذابه أليمًا عند الله ومصيره بئيسًا، هو من كتب الله عليه الطرد والإبعاد عن رحمته، ورجع بغضب من الله - سبحانه وتعالى - لاستهزائه بالأنبياء وقتله للرسل وتحريفه للكتاب ومخالفته لأوامر الله - عز وجل -، وهؤلاء غيَّر الله صورهم إلى صور القردة والخنازير، وجعل منهم من يعبد الشيطان وأولياءه، هؤلاء هم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وهم شر الخليقة، وهم الذين انحرفوا عن الطريق المستقيم وعن الصراط القويم.

﴿٦١﴾ ﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلۡكُفۡرِ وَهُمۡ قَدۡ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكۡتُمُونَ ﴾

هؤلاء الذين أظهروا لكم الإسلام من اليهود إذا دخلوا عليكم قالوا: آمنا بدينكم وصدقنا رسولكم، والحقيقة أنهم حينما دخلوا عليكم دخلوا بالكفر ولم يتركوه وعادوا به إلى قومهم، والله - عز وجل - عالم بخفايا أمرهم وما أسروه في أنفسهم وما أضمروه في قلوبهم وسوف يحاسبهم.

﴿٦٢﴾ ﴿ وَتَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾

كثير من اليهود يتسابقون في المعاصي وفي تناول الحرام مخالفين أمر الله -عز وجل- وفي ترك طاعته؛ فبئس الصنيع صنيعهم، وبئس الفعل فعلهم، لقد ارتكبوا السوء وفعلوا القبيح.

﴿٦٣﴾ ﴿ لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ﴾

هَلاَّ يقوم علماؤهم ورؤساؤهم بزجرهم عن الكذب وأكل الرشوة والربا؟! ألا يحذرونهم من هذه الأفعال القبيحة؟ ألا يعظونهم ويزجرونهم عن هذه الأعمال الشنيعة؟! قبحًا لصنيعهم هذا، ولبئس ما يصنعونه من أعمال منكرة، ولبئس ما يصنعه علماؤهم من تركهم وعدم زجرهم عن المنكر.. وفيه دليل على أن الترك فعل، فلا علماؤهم نصحوهم، ولا هؤلاء العامة سمعوا وارتدعوا عن فعلهم، لقد اشتركوا في المعصية وباؤوا بغضب من الله.

﴿٦٤﴾ ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾

ومن شناعة اليهود -قاتلهم الله- أنهم افتروا على الله، قالوا: إن الله بخيل في الإنفاق لا يوسع على خلقه في الرزق - تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا - فردّ الله عليهم بالدعاء عليهم، وأخبر أن أيديهم هي المغلولة وسوف تغلُّ عند الله -عز وجل- إلى أعناقهم، ويُطردون من رحمة الله طردًا، والواقع أن الله - سبحانه وتعالى - ينفق بيديه، وكلتاهما يمين مملوءة بالبركة والعطاء، وأنهما مبسوطتان ليلاً ونهارًا، سحاء الليل والنهار، كل من في السموات والأرض يرزقه الله - سبحانه وتعالى - وهو كثير الجود، واسع العطاء، عظيم الكرم، متفضل منّان، وسوف يزيد هؤلاء اليهود بما أنزل الله عليك من القرآن كفرًا إلى كفرهم، وعدوانًا إلى عدوانهم؛ لأنهم كلما أُنزلت عليك آية كفروا بها وزاد كفرهم، وبغيهم، ثم إنهم يحسدونكم على كل آية نزلت، وكل سنَّة قامت، فيزداد إثمهم عند الله - سبحانه وتعالى - وقد جعلنا العداء والخلاف الشديد والبغض الأكيد بين فرق اليهود، فهم بينهم متخاصمون مختلفون إلى قيام الساعة، لا يجتمعون على كلمة ولا يتحدون إلى رأي، وكلما سعوا في محاربة المسلمين وإشعال الفتنة رد الله كيدهم في نحورهم، وأبطل مكرهم وخيّب مسعاهم، فهم لا يفترون عن الإفساد في الأرض ونشر الفتن وبث الجريمة وإشاعة الرذيلة، والله - عز وجل - لا يحب من هذه صفته، فلا يحب أهل الفساد ولا المفسدين، وإنما يحب أهل الصلاح والمصلحين.

﴿٦٥﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾

لو كان اليهود والنصارى صدّقوا بما أنزل الله على رسوله، واتبعوا رسوله، وآمنوا بما أنزل على رسلهم واتبعوهم، وامتثلوا أمر الله واجتنبوا نهيه لمحونا عنهم الخطيئات، وتجاوزنا عما فعلوه من سيئات، ورحمناهم وتبنا عليهم، ثم كانت عاقبتهم في جنات الخلد الدائم والنعيم المقيم مع رضوان من الله أكبر وفوزٍ أعظم.

﴿٦٦﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾

ولو أن اليهود عملوا بما في التوراة، والنصارى عملوا بما في الإنجيل، وصَدَّقُوا بما أنزل الله على محمد - عليه الصلاة والسلام - لوسع الله عليهم في الرزق، ولأغدق عليهم في العطاء، ولجعل رزقهم هنيئًا في حدائق مثمرة، وبساتين وارفة من أنواع الثمار مما أنبتته الأرض وأطلعه الشجر، ومن هؤلاء اليهود والنصارى طائفة معتدلة في الدين متوسطة في المنهج لا تسرف ولا تقصر، وهم الذين اتبعوا الرسول ﷺ واتقوا الله - عز وجل - ولكن الكثير الغالب من اليهود والنصارى عملهم سيئ، وفعلهم قبيح؛ لمخالفتهم أمر الله وتكذيبهم رسول الله ﷺ.

﴿٦٧﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾

يا محمد، عليك بأداء الرسالة التي ائتمنك الله عليها، وتبليغ هذا الدين الذي استحفظت عليه ولا تنقص منه شيئًا، فإن كتمت منه شيئًا فما أديت الأمانة على وجهها، ولا بلغت الرسالة، ولا نصحت الأمة وحاشاه ﷺ، ولا تخف من الناس في تبليغ الرسالة، فسوف يحفظك الله -عز وجل- ويبطل كيد أعدائك ويتولى أمرك؛ لأن من عاداك فهو كافر، والله لا يُسَدِّدُ الكافر ولا يهديه سبيلاً، ولا يوفقه إلى أي خير، فمن الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وقد بيّن الله رسالته، وأدى الرسول ﷺ أمانته، ونحن أسلمنا وصدقنا.

﴿٦٨﴾ ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

أيها اليهود والنصارى: لستم على حق ولا بينة من أمركم حتى تتعلقوا بالتوراة والإنجيل بعدما حرّفتموهما وغيرتم كثيرًا من نصوصهما وأبطلتم العمل بهما، وكذبتم محمد بن عبدالله ﷺ وخالفتم أمره، والذي أنزل الله على رسوله ﷺ لا يزيد هؤلاء اليهود والنصارى إلا بعدًا عن الله، ومعصيةً له - سبحانه وتعالى - لأنه كلما أتى الرسول ﷺ ببينة كفروا، وكلما أتى بآية كذبوا؛ فيزدادون بهذا التكذيب وهذا العناد كفرًا إلى كفر، فأنت يا محمد، لا تأسف على كفرهم ولا تحزن على إعراضهم، فالله - سبحانه وتعالى - غني عنهم، وسوف ينصرك ويأتي الله بخير منهم.

﴿٦٩﴾ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

المؤمنون بالله الذين صدقوا بكتب الله، واتبعوا رسله مثل اليهود الذين صدقوا بموسى واتبعوا ما في التوراة، والصائبة (وهم من لا دين لهم، الباقون على فطرتهم) والنصارى الذين اتبعوا عيسى وَصَدَّقُوا بالإنجيل، وآمنوا باليوم الآخر في زمانهم وعملوا صالحًا فهؤلاء لا ينالهم خوف مما ينتظرهم من الأزمات، فالله أمَّن خوفهم بأعمالهم الصالحة، ولا يحزنون على ما تركوا أو يخافون مغبة ما فعلوا وعاقبة ما صنعوا، وهؤلاء هم الذين آمنوا بأنبيائهم في زمانهم، أما بعد مبعث محمد ﷺ فلا يسع أحد من العالم كائنًا من كان إلا اتباعه، ﴿**وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾. وعلى هذا فالآية تشمل المؤمنين بأنبيائهم الذين ماتوا قبل البعثة المحمدية، والذين آمنوا به بعد مبعثه من جميع أهل الأديان السماوية.

﴿٧٠﴾ ﴿ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ رُسُلًا ۖ كُلَّمَا جَآءَهُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا۟ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴾

سبق أن أخذنا على اليهود عهودًا موثقة، وأيمانًا مغلظة، أن يؤمنوا بالله ويتبعوا رسله، فلما بعثنا إليهم الرسل ورأوا أن ما جاؤوا به يخالف أهواءهم، أخذوا يقتلون أنبياء الله وكذبوهم فارتكبوا عملين فظيعين: تكذيب الكتب، وتقتيل الرسل، فاتبعوا الهوى وتركوا الهدى، وأخذوا الهلاك وتركوا النجاة، وسلكوا سبل الردى.

﴿٧١﴾ ﴿ وَحَسِبُوٓا۟ أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا۟ وَصَمُّوا۟ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ ۚ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

ظن اليهود أن الله - سبحانه وتعالى - لن يعاقبهم على ما فعلوا، فاستحبوا العمى على الهدى، وصموا عن سماع الحق، ثم تاب الله عليهم لعلّهم أن يراجعوا أنفسهم ويعودوا إلى ربهم، فعادوا إلى جرائمهم وبغيهم من جديد، فازدادوا عمى عن الحق، وصممًا عن سماع الرشد، وهذا فعل الكثير منهم، وأما القليل منهم فمهتدٍ، والله لا تخفى عليه خافية من أعمالهم ولا مما أسرُّوه واقترفوه، وسوف يجازيهم بسوء صنيعهم، وقبح فعلهم.

﴿٧٢﴾ ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾

والله لقد كفر الذين قالوا من النصارى إن الله - سبحانه - هو المسيح عيسى ابن مريم تعالى الله عن ذلك، وهم فرقة اليعقوبية الذين يرون حلول الله في عيسى، ويقولون بمبدأ اللاهوت والناسوت، حلت ذات الله في ذات عيسى تقدس الله عن ذلك، فيرون أن عيسى جمع بين كونه إلهًا وكونه إنسانًا، ثم قالوا بألوهيته، وعيسى ينكر ذلك ويبرأ إلى الله منه، وينادي في قومه: اعبدوا الله المستحق للعبودية وللألوهية، ولا تعبدوني فإني عبدٌ لله، وربي وربكم الله، وإنه الذي خلقنا

ورزقنا وأمرنا بعبادته، وعملكم هذا شرك مخرج من الملة، ومن يشرك بالله فالجنة عليه حرام، والنار مثواه خالدًا فيها مخلدًا وهو ظالم معتد، وليس للظالم وليٌّ يدفع عنه ويجلب له النفع يوم القيامة، ولا ناصر يمنعه من العذاب.

﴿٧٣﴾ ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٖۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

وهنا فرقة ثانية من النصارى يقولون بالتثليث، وأن الله ثالث ثلاثة: الأب والابن وروح القدس، فهؤلاء كافرون بالله وهم في النار؛ لأنه لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فليس له - سبحانه وتعالى - شريك في ملكه، وإنما عيسى ومريم من عباده، وهؤلاء إن لم يتوبوا إلى الله من قولهم ويراجعوا أنفسهم في هذا الشرك العظيم فسوف يصيبهم - سبحانه وتعالى - بعقابه، ويبتليهم بعذابه، وعذابه أليم فظيع، لا طاقة لأحد في تحمله؛ لأنهم ارتكبوا أعظم ذنب في العالم، وأكبر خطيئة في الدنيا.

﴿٧٤﴾ ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾

أفلا ينتهون عن قولهم السقيم، وعن فعلهم الأثيم من ادعاء عقيدة التثليث وقولهم في الأب والابن وروح القدس، وزعمهم بأن مريم وعيسى مشاركان في الألوهية لله، تعالى الله عن ذلك، فالله إله واحد، وهم يزدرون بالعقول ويجعلون الثلاثة واحدًا، وقولهم هذا من أبطل الباطل وأمحل المحال، ويشبهون ذلك بالشمس تتناول القرص والشعاع والحرارة وهي تعادل واحدًا!! وهذا سفه في المعقول، وكذبٌ في نسبته إلى منقول، وازدراء بالفكر البشري والعقل الإنساني، فلا عقل ولا نقل، ولو أنهم تابوا واستغفروا ربهم لغفر الله لهم، فإن الله واسع المغفرة، عظيم الرحمة جل في علاه، فانظر كيف عرض لهم التوبة وقد قالوا بقول عظيم، وهذا فيه رجاء لكل عاصٍ أن يراجع نفسه ويتوب إلى ربه.

﴿٧٥﴾ ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۖ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾

عيسى ابن مريم عليه السلام عبد الله ورسول وليس إلهاً فهو كالرسل الذين أتوا من قبله، وكذلك مريم أمه ليست بإله وإنما هي صديقة وولية طاهرة عفيفة شريفة، وعيسى وأمه بشر ليس فيهما من الألوهية شيء، يحتاجان إلى أكل ويأكلان الطعام كما يأكله الناس وتخرج منهم الفضلات كما تخرج من الناس، ولكن القرآن الكريم يرتفع بالأذواق إلى أعلى المدارج فكنى عن فضلات الطعام بالأكل بما يفهمه أولو الألباب، وهذا هو الجواب الصحيح في المسألة والقول الحق، والعجب من هؤلاء النصارى كيف نوضح لهم الحق بالدليل، والصدق بالبرهان، ثم ينحرفون عن هذا القول، ويفترون على الله الكذب ويقولون الباطل ويحرِّفون الكلام!!

﴿٧٦﴾ ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّٗا وَلَا نَفْعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

قل - يا محمد - لهؤلاء النصارى: هل تعبدون من لا يملك لنفسه نفعًا، ولا يدفع عنها ضرًا من البشر كعيسى - عليه السلام - والله - سبحانه وتعالى - هو الذي يستحق العبادة - جل في علاه - فهو الذي يملك النفع والضر، والإحياء والإماتة، والإعطاء والمنع، والله سميع لأقوالكم الآثمة، وعليم بأفعالكم القبيحة، وسوف يحاسبكم على ما فعلتم ويعاقبكم على ما اقترفتم.

﴿٧٧﴾ ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٖ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾

أيها اليهود! أيها النصارى! لا تتجاوزوا الحد في معتقدكم، ولا تكذبوا على ربكم، ولا تتبعوا أهواءكم، فإن النصارى غلوا في عيسى فجعلوه إلهًا أو ابنًا له، وهذا مجاوزة في الحد وافتراء على الله، واليهود غلوا في ذلك وقالوا قولاً

فاحشًا بنسبة أمه إلى الزنا، وأنه ابن غير شرعي -أكرمه الله وصانه عن ذلك وصان أمه- فهؤلاء ضلوا عن سواء السبيل، وأفسدوا في الأرض وأضلوا غيرهم بهذه الأقوال، وخدعوا العوام، فهم أساؤوا في المعتقد ودعوا الناس إلى معتقدهم الباطل المحرم.

٧٨ ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ﴾

لقد طرد الله من رحمته وغضب أشد الغضب على من كفر من بني إسرائيل وكذَّب رسل الله، وجعل لعنتهم في الزبور الذي أنزله على داود، وفي الإنجيل الذي أنزله على عيسى؛ بسبب مخالفتهم لأمر الله، وتكذيبهم لرسل الله، واعتدائهم في الدين بترك المأمور وعمل المحظور، ومخالفة شرعه سبحانه وتعالى.

٧٩ ﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴾

كان هؤلاء الفجرة المردة من بني إسرائيل لا ينهى بعضهم بعضًا عن فعل المنكر القبيح ولا عن الفساد، وإنما يسكت بعضهم عن بعض، فبئس الصنيع صنيعهم، وبئس الفعل فعلهم، وسوف يجازيهم الله على ذلك.

٨٠ ﴿ تَرَىٰ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ يَتَوَلَّوۡنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ لَبِئۡسَ مَا قَدَّمَتۡ لَهُمۡ أَنفُسُهُمۡ أَن سَخِطَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَفِي ٱلۡعَذَابِ هُمۡ خَٰلِدُونَ ﴾

تجد كثيرًا من اليهود يوالون المشركين الوثنيين بغضًا في المسلمين، وهذه الموالاة عمل قبيح وفعل سيئ وقبحًا له من صنيع، فهم بهذه الموالاة استوجبوا غضب الله وسخطه في الدنيا والآخرة، وسوف يخلدهم الله في نار جهنم؛ لأنهم اختاروا الكفر على الإيمان.

٨١ ﴿ وَلَوۡ كَانُواْ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلنَّبِيِّ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مَا ٱتَّخَذُوهُمۡ أَوۡلِيَآءَ وَلَٰكِنَّ كَثِيرٗا مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴾

لو أن هؤلاء اليهود صدّقوا بما أنزل الله على نبيهم موسى من التوراة، واتبعوا محمدًا سيد الخلق ﷺ وتركوا موالاة المشركين لكان خيرًا لهم، ولكنهم خارجون عن طاعة الله، فجرة في أوامر الله، عتاة لا يخافون الله.

٨٢ ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقۡرَبَهُم مَّوَدَّةٗ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا وَأَنَّهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ ﴾

لتجدن - يا محمد - أن أكثر الناس عداوة لمن اتبعك من المؤمنين هم اليهود؛ لحسدهم وبغيهم وكبرهم وعنادهم، وكذلك من أشرك بالله من عبدة الأصنام، وسوف يظهر لك أن النصارى أقرب الناس صداقة للمسلمين؛ لأن فيهم العلماء الزهاد، والخاشعين العباد، وفيهم تواضع للحق، وقبول للصدق، وفيهم من صدق منهم بمحمد ﷺ ولم يلحد. وهم المقصودون هنا لا كل النصارى.

٨٣ ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعۡيُنَهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلۡحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

وإذا أنصتوا للقرآن فاضت عيونهم بالدموع من الخشوع، ومن تصديقهم بالمسموع، كما فعل النجاشي وأهل الحبشة، لما سمعوا كلام الله، وسألوا أن يشرفهم بمنزلة الشهادة على الأمم مع الأمة المحمدية يوم القيامة؛ لينالوا الفوز الأكبر.

٨٤ ﴿ وَمَا لَنَا لَا نُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡحَقِّ وَنَطۡمَعُ أَن يُدۡخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

وما الذي يمنعنا من توحيد الله وتصديق كتابه واتباع رسوله النبي الأمي ﷺ ونأمل أن يجعلنا ربنا مع من صدق في عبادته وفاز بمغفرته ودخل جنته.

٨٥ ﴿ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

فكان جزاؤهم عند الله على إيمانهم بالحق وقولهم الصدق أحسن الجنان مع الفوز بالرضوان من ربهم الرحمن، وهذا مكافأة لأهل الإحسان.

﴿٨٦﴾ ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾

والذين كفروا بربهم وكذبوا رسوله، ولم يقبلوا كتابه، فهم في نار جهنم مخلدون وفي العذاب مقيمون، لا وليًا يشفع، ولا ناصرًا يدفع، ولا دعاءً يُسمع.

﴿٨٧﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾

أيها المؤمنون: لا تمتنعوا عن الطيبات من المطعومات والمشروبات والزوجات وتجعلوها محرمات، ولا تقربوا المحرمات، فالله لا يحب الاعتداء بتحريم الحلال ولا بتحليل الحرام، ولكن يحب الممتثل لما شرع.

﴿٨٨﴾ ﴿ وَكُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَٰلٗا طَيِّبٗاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴾

وعليكم - أيها المؤمنون - بأكل الحلال الطيب، واجتناب المحرّم الخبيث، واخشوا ربكم بفعل المأمور واجتناب المحظور إن كنتم صادقين في عبوديته واتباع رسوله والعمل بشرعه.

﴿٨٩﴾ ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيۡمَٰنِكُمۡ إِذَا حَلَفۡتُمۡۚ وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمۡ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ﴾

يا أهل الإيمان، لن يعاقبكم الله باللغو في الأيمان، إذا كنتم لم تقصدوا الحلف بالنية، كقولكم: لا والله وبلى والله، لكن من نوى بقلبه إذا حلف بربه انعقد يمينه، فإن أمضاه وإلا فعليه أن يطعم عشرة مساكين، لكل مسكين نصف صاع من قوت الناس، أو كسوة عشرة، لكل واحد كسوة كاملة، أو يعتق مملوكًا، فمن لم يستطع الإطعام أو الكسوة أو العتق فليصم ثلاثة أيام، واحترزوا من كثرة الحلف والحنث في اليمين وعدم الوفاء بها، أو ترك الكفارة إذا حلفتم، ومثلما أوضح الله لكم حكم اليمين فقد أوضح لكم شرائع الدين كي تشكروا رب العالمين على ما أنزله على الهادي الأمين.

﴿٩٠﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾

أيها المؤمنون: كل ما أسكر العقل أو أضاع المال في الحرام كالقمار أو عُبِدَ من دون الله كالأصنام أو منع من التوكل على الله كالقداح التي يستقسم بها المشركون فهذا كله حرام من تلبيس إبليس، ومن مكر الشيطان وكيده، فاتركوه لتنالوا رضوان الله، وتنجوا من غضبه وعذابه.

﴿٩١﴾ ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾

وقصد الشيطان من إيقاعكم في هذه المحرمات أن يجعل بينكم الخلاف والخصومة، فيبغض بعضكم بعضًا، فتكونوا أعداء لدَادًا أهل بغضاء وشحناء بسبب المسكر؛ لأن الخمر يمنع من أداء الصلاة وذكر الله لغياب العقل؛ ولأن القمار يضيع الأعمار ويشغل عن الأذكار بغضب الجبار، فإن كنتم صادقين في الإيمان فانتهوا عما نهى عنه القرآن.

﴿٩٢﴾ ﴿ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَٱحۡذَرُواْۚ فَإِن تَوَلَّيۡتُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴾

وقوموا بطاعة الله أحسن قيام، واتبعوا خير الأنام - عليه الصلاة والسلام - واخشوا الله وراقبوه في أداء ما أوجب، والبعد عما نهى عنه، فإن تركتم الاستقامة التي هي طريق الكرامة فلكم الويل والندامة، والرسول ﷺ ليس عليه إلا إقامة الحجة وتوضيح المحجّة، وليس مسؤولاً عمن ضل عن الهدى ووقع في الردى.

﴿٩٣﴾ ﴿ لَيۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٞ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ثُمَّ ٱتَّقَواْ وَّأَحۡسَنُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

ما على من آمن وأطاع ربه ذنب في تناول المسكر قبل تحريمه، ثم تركه بعد التحريم وانتهى وراقب مولاه وخافه واتقاه، وعمل الخيرات، وترك المنكرات، ثم ازداد تقوى لله بفعل ما أمره به وترك ما نهاه عنه من قوة التصديق

ورسوخ المعرفة، ثم وصلوا إلى درجة اليقين في الإيمان برب العالمين، حتى صار الغيب كالعيان، وهي درجة الإحسان، فهم يتقون ربهم ويطيعونه ويعبدونه كأنهم يرونه، والله يحب من هذه صفته.

وفيه أن الكافرين يعذبون يوم القيامة بالأشياء التي تَنَعَّموا بها في الدنيا من مأكل ومشرب، فإذا لم يكن على المؤمنين جناح، فإن على الكافرين جناح.

٩٤ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴾

أيها المؤمنون، سوف يمتحن الله إيمانكم وامتثالكم لشرعه بأن يقترب منكم الصيد المحرم عليكم، وأنتم محرمون حتى يمسَّ أيديكم ورماحكم؛ ليظهر علمه فيمن راقبه وخافه فلم يقتل الصيد، فمن اعتدى فقتل الصيد وخالف النهي فقد استحق العذاب الشديد والعقاب الأكيد.

٩٥ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡتُلُواْ ٱلصَّيۡدَ وَأَنتُمۡ حُرُمٞۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآءٞ مِّثۡلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحۡكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ هَدۡيَۢا بَٰلِغَ ٱلۡكَعۡبَةِ أَوۡ كَفَّٰرَةٞ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوۡ عَدۡلُ ذَٰلِكَ صِيَامٗا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمۡرِهِۦۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَۚ وَمَنۡ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنۡهُۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٞ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾

أيها المؤمنون: إذا كنتم محرمين فاجتنبوا صيد البر، ومن قصد قتل الصيد فعليه أن يذبح ما يماثله من الإبل والبقر والغنم، ويجعله لفقراء الحرم، ويقدر هذا الهدي رَجُلان من أهل العدالة، فإن لم يوجد للصيد ما يماثله اشترى بقيمته طعامًا وتصدق به على فقراء الحرم، أو صام يومًا عن كل نصف صاع من ذلك الطعام؛ تأديبًا له وتعزيرًا على فعله وزجرًا له عما ارتكب، ومن صاد قبل أن يحرم الصيد فالله يتجاوز عنه ويغفر له، ولكن من قصد الصيد بعدما حُرِّم فالله يؤاخذه بالانتقام؛ لأنه ارتكب الحرام؛ لأن الله قوي لا يُغالب، منيع لا يحارب، من أراده أدركه بلا عجز، ينتقم ممن عصاه إذا أراد أذاه.

٩٦ ﴿ أُحِلَّ لَكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَحۡرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعٗا لَّكُمۡ وَلِلسَّيَّارَةِۖ وَحُرِّمَ عَلَيۡكُمۡ صَيۡدُ ٱلۡبَرِّ مَا دُمۡتُمۡ حُرُمٗاۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِيٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾

أيها المؤمنون: قد أباح الله لكم ما صدتم من البحر وهو حي، وما وجدتم فيه وهو ميّت، تنتفعون به في حال الإقامة والسفر، فإذا أحرمتم حرُم عليكم صيد البر حتى تتحلّلوا، وراقبوا ربكم وافعلوا ما أمر واجتنبوا ما نهى، فسوف تساقون إليه للحساب، فإما ثواب وإما عقاب.

٩٧ ﴿ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلۡكَعۡبَةَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ قِيَٰمٗا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَٱلۡهَدۡيَ وَٱلۡقَلَٰٓئِدَۚ ذَٰلِكَ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴾

لقد تفضل الله - سبحانه وتعالى - بأن جعل الكعبة وجعل بيته الحرام أمنًا للناس وصلاحًا لدينهم وقبلةً لصلاتهم، وحرّم - سبحانه وتعالى - العدوان في أشهر الحج: شوال، وذي القعدة، وذي الحجة، فلا يجوز لأحد أن يعتدي على أحد، وحرّم -سبحانه وتعالى - انتهاك حرمة بهيمة الأنعام مما يُهدى إلى البيت العتيق، وما يقلَّد منها ويصبح شعارًا عليها بأنها مما أُهدي إلى البيت العتيق؛ لتتيقنوا بهذه الأحكام أن الله لا تخفى عليه خافية، فهو يعلم أسرار ما في السموات والأرض، ولا تغيب عليه غائبة، ولا يستتر عليه سر، فهو يعلم ما في السرائر، ويطلع على ما في الضمائر، أحاط بكل شيء علمًا.

٩٨ ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

أيها الناس، اعلموا تمام العلم أن الله قوي الأخذ لمن عصاه، شديد المعاقبة لمن خالف أمره وارتكب نهيه، وأنه - سبحانه وتعالى - كثير المغفرة لمن تاب، رحيم لمن أناب، فهو واسع الغفران؛ لأنه رحيم رحمن.

﴿٩٩﴾ ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴾

ليس على رسولنا إلا أن يبلغ ما أُمِرَ بإبلاغه فهو لا يعلم حقيقة ما تبدونه ولا ما تكتمونه، فالله وحده هو الذي يعلم ذلك كله ويجازي عليه.

﴿١٠٠﴾ ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِى ٱلْخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ ٱلْخَبِيثِ ۚ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

أخبرهم - يا محمد - أنه لا يمكن أن يستوي الخبيث من كل شيء مع الطيب من كل شيء، فلا يستوي من كفر مع من آمن، ولا من عصى مع من أطاع، ولا يستوي الجاهل والعالم، والمبتدع والسني، والمال الخبيث والمال الحلال، والقول الطيب والقول القبيح، فخافوا الله أيها الناس وراقبوه إن كانت لكم بصائر وعندكم عقول تفكرون بها، فأقبلوا على الطيب، واتركوا الخبيث؛ لتنالوا رضوان الله وتفوزوا برحمته وبثوابه في جنات النعيم.

﴿١٠١﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

أيها المؤمنون: اتركوا كثيرًا من الأسئلة وقت نزول التشريع على رسول الله ﷺ، وما سكت الله عنه فهو عفو؛ لأنكم إذا سألتم عن أشياء وتكلفتم السؤال عنها ربما تُفرض عليكم فلا تستطيعون القيام بها، فكونوا في عفو الله -عز وجل-، وإذا سألتم عنها والقرآن ينزل على الرسول ﷺ بيّنها الله لكم وقد تعجزون عن حملها والقيام بها، فاقبلوا عفو الله - سبحانه وتعالى - ورحمته؛ لأنه يغفر الذنب ويحلم عمن عصاه، ويتوب على من تاب عليه، ويتجاوز عمن أقبل إليه.

﴿١٠٢﴾ ﴿ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴾

الذين قبلكم من الأمم سألوا مثل هذه الأسئلة التعجيزية المكلفة، فلما بُيِّن لهم الحكم جحدوا بها، وألحدوا فيها، وكذبوا بها، ولم يعملوا بما أمر الله - سبحانه وتعالى - ولم ينتهوا عما نهى عنه.

﴿١٠٣﴾ ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۖ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

كذب المشركون فالله - سبحانه وتعالى - لم يشرع لهم هذه الضلالات التي جعلوها وابتدعوها في بهيمة الأنعام، فهم جعلوا أقسامًا ما أنزل الله بها من سلطان مثل: البحيرة يقطعون أذنها إذا ولدت عدة بطون، ثم يسيّبون بعضها ويقولون هذه لأصنامنا، ويجعلون الوصيلة وهي التي تلد الأنثى، ثم الأنثى وهكذا، ويسمون الحامي من الإبل وهو الذكر إذا وُلِدَ من صلبه عددٌ من الإبل فيجعلون هذه الأنواع للأصنام ولا يقربونها وينسبونها إلى الله بأن الله أمرهم بذلك، وهم كذبوا وافتروا على الله -عز وجل-، والله - سبحانه وتعالى - لم يأمر بذلك، إنما أمر بالحق والصدق الذي أنزله على رسوله - عليه الصلاة والسلام - لكنهم لا عقول عندهم يفكرون بها، ولا بصائر يستنيرون بها.

﴿١٠٤﴾ ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾

وإذا خُوطب هؤلاء المشركون وقيل أقبلوا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قالوا يكفينا ما ورثناه عن آبائنا، فإذا كان آباؤهم جهَّالاً ضلَّالاً لا يفهمون حقًا، ولا يعرفون معروفًا، ولا ينكرون منكرًا، ولا يهتدون إلى صواب، ولا يسلكون رشدًا، فكيف يتبعونهم ويتركون الهدى الذي بُعث به الرسول ﷺ؟ وكيف يقدمون آراءهم على الوحي وهم من أضل الناس سبيلاً وأجهلهم طريقًا.

﴿١٠٥﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

أيها المؤمنون: استمسكوا بطاعة الله - سبحانه وتعالى - وألزموا أنفسكم الصلاح والإصلاح، واتركوا المعاصي وداوموا على عبادة ربكم تستوجبوا رحمته، فأنتم إذا بلَّغتم رسالة ربكم وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر، فلا

يضركم ضلال من ضل، بل ضَلالُه على نفسه وإثمه عليه، لا يصيبكم من ذنبه شيء؛ لأنكم قد قمتم بما أوجب الله عليكم والمرجع إليه - سبحانه وتعالى - فيخبر الجميع بما عمل، ويوفي الجميع بما صنع، ويحاسب الجميع على ما قدّم.

﴿١٠٦﴾ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيۡنِكُمۡ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ حِينَ ٱلۡوَصِيَّةِ ٱثۡنَانِ ذَوَا عَدۡلٖ مِّنكُمۡ أَوۡ ءَاخَرَانِ مِنۡ غَيۡرِكُمۡ إِنۡ أَنتُمۡ ضَرَبۡتُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَأَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةُ ٱلۡمَوۡتِۚ تَحۡبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعۡدِ ٱلصَّلَوٰةِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ لَا نَشۡتَرِي بِهِۦ ثَمَنٗا وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰ وَلَا نَكۡتُمُ شَهَٰدَةَ ٱللَّهِ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلۡأٓثِمِينَ ﴾

أيها المؤمنون: إذا قارب أحدكم من الوفاة وظهرت عليه مقدمات الموت وهو مسافر فليشهد على وصيته مسلمَيْن عدلَيْن، وإن لم يجد فغير مسلمين، فإذا شككتم في صدق الشاهدين فأقيموهما بعد صلاة العصر للحلف في جمع الناس، فيحلفان بالله لا نستعيض مكان صدق شهادتنا شيئًا من حطام الدنيا فنكذب على الله ونخون عباده ولو كان من نحلف له قريبًا منا، ولا نخفي شيئًا من الشهادة أو نغيّرها، بل نؤديها كاملة واضحة كما سمعناها، فإن أخفينا شيئًا منها فقد جرنا وظلمنا وأثمنا.

﴿١٠٧﴾ ﴿ فَإِنۡ عُثِرَ عَلَىٰٓ أَنَّهُمَا ٱسۡتَحَقَّآ إِثۡمٗا فَـَٔاخَرَانِ يَقُومَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَحَقَّ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَوۡلَيَٰنِ فَيُقۡسِمَانِ بِٱللَّهِ لَشَهَٰدَتُنَآ أَحَقُّ مِن شَهَٰدَتِهِمَا وَمَا ٱعۡتَدَيۡنَآ إِنَّآ إِذٗا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

فإذا ظهر أنهما كَذَبا وخانا واستوجبا الإثم، فاختاروا بدلهما رجلين آخرين عدلين من أولياء الميت، فيحلفان بالله أن شهادتنا أصدق من شهادة الشاهدين الكاذبين، ويميننا أبر من يمينهما؛ لأنهما كذبا وخانا، وما ظلمناهما بما رميناهما به من الكذب والخيانة، ولو فعلنا ذلك لكنا نحن الظالمين الآثمين المستحقين للعقاب.

﴿١٠٨﴾ ﴿ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِٱلشَّهَٰدَةِ عَلَىٰ وَجۡهِهَآ أَوۡ يَخَافُوٓاْ أَن تُرَدَّ أَيۡمَٰنُۢ بَعۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱسۡمَعُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ﴾

وهذه الصيغة من الشهادة أقرب لأداء الشهادة على وجهها الصحيح بلا خيانة ولا كذب ولا تغيير ولا تحريف، خوفًا من وصمة العار عليهما في الدنيا والعقاب يوم القيامة، فإذا رُدت شهادتهما في الدنيا افتضحا، وإذا عادا إلى الله عُذبا، فيخافان هذا المصير، فيحرصان على الصدق والوفاء، ويحذران من الكذب والخيانة، واخشوا ربكم أيها الناس واحذروا عقابه بطاعته، واسمعوا سماع قبول لأمره، والله لا يوفق من خرج عن طاعته لهدايته، ولا يسدّد من عصى شرعه لمرضاته.

﴿١٠٩﴾ ﴿ يَوۡمَ يَجۡمَعُ ٱللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبۡتُمۡۖ قَالُواْ لَا عِلۡمَ لَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ ﴾

وتذكروا - أيها الناس - يوم الفزع الأكبر، والهول الأعظم، يوم يجمع الله الرسل وأممهم، فيسأل الله الرسل وهو أعلم بما حدث، ماذا أجابكم به من أُرسلتم إليهم بالإيمان هل صدقوكم وقبلوا ما جئتم به أم كذبوكم وردوا ما بُعثتم به؟ فيقول الرسل من هول الموقف: لا علم لنا بما صار، أو لا علم لنا بجانب علمك يا رب، فأنت أعلم بما تخفي الصدور وتُكِّن الضمائر، ولا ندري ما حدث بعدنا في أممنا.

﴿١١٠﴾ ﴿ إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ﴾

وتذكروا - أيها الناس - ذلك اليوم العصيب الرهيب يوم يقول الله لعيسى بن مريم: تذكر يا عيسى فضلي عليك وعلى أمك مريم إذ قويتك وأعنتك بجبريل، وأنطقتك بالكلام المسدد وأنت رضيع، وتدعوهم إلى التوحيد وأنت كبير، وعلمتك الخط بلا معلم، وفهّمتك الحكمة بلا مفهِّم، فصار عندك نفاذ في البصيرة، وقوة في الإدراك، وحفَّظتُك

التوراة والإنجيل في صدرك، مع فقه نصوصها وفهم معانيها، وكنت ترسم وتشكل من الطين مثل أجسام الطيور فتنفخ في تلك الأجسام فتطير بإذن الله، ومن وُلد أعمى من قومك رددت عليه بصره بأمر الله وقدرته، وتذهب البرص عن الأبرص فيعود جلده حسنًا بمشيئة الله وقدرته، وتنادي الأموات فيخرجون من قبورهم أحياء بإذن الله وقدرته، وكرر كلمة بإذني أربع مرات ليرد على النصارى أهل الافتراءات في دعواهم أن عيسى إله يحيي الأموات وقد كذبوا، فكل هذه بقدرة رب الأرض والسماوات، وتذكر يا عيسى نعمتي عليك لما رددت بني إسرائيل عن قتلك ومنعتك منهم فلم يصلوا إليك حين أتيتهم بالآيات البيّنات والمعجزات الواضحات، فردّ عليك المكذبون منهم بأن ما جئت به من هذه الآيات الباهرة سحر ظاهر لا يخفى؛ كذبًا منهم وزورًا.

﴿١١١﴾ ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾

وتذكر - يا عيسى - حين أمرت الحواريين بوحدانيتي والإيمان برسالتي التي أرسلتك بها فوافقوا وصدقوك وأخلصوا العمل لله، وأحسنوا الانقياد له - سبحانه - بالإقرار بوحدانيته والتصديق برسالة عيسى.

﴿١١٢﴾ ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

واذكروا يوم قال الحواريون أتباع عيسى في سوء أدب: يا عيسى هل يستطيع الله أن ينزل علينا مائدة طعام من السماء؟! فقال عيسى: خافوا الله واخشوه وتأدبوا معه إن كنتم صادقين في الإيمان به واتباعي، وكأنهم سألوا للاطمئنان لا للامتحان.

﴿١١٣﴾ ﴿ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾

فقال الحواريون: نحن يا عيسى نريد بهذا السؤال أن نتبرك بالأكل منها، ونزداد إيمانًا ويقينًا، ونعتقد اعتقادًا جازمًا في صدقك، ونشهد على هذه المعجزة عند من لم يحضرها، وتظهر لنا الحجة على وحدانية الله وعلى رسالتك فنكون على ذلك شهودًا.

﴿١١٤﴾ ﴿ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴾

فلما علم عيسى صدق الحواريين في الطلب قام فسأل ربه بالألوهية والربوبية أن ينزل عليهم مائدة من السماء يكون يوم نزولها عيدًا فيه مناسبة فرح وسرور لمن حضرها من ذاك الجيل، ولمن يخلفهم من قومهم، وتكون المائدة آية على وحدانيتك ومعجزة تدل على صدق رسالتي، وجُدْ علينا بفضلك الواسع، وعُدْ علينا بخيرك العميم، فأنت خير من وهب، وأجود من بذل.

﴿١١٥﴾ ﴿ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

فأوحى الله إلى عيسى أنني سوف أنزِّل عليكم المائدة من السماء، فمن كذّب بعد هذه المعجزة الظاهرة والآية الباهرة فسوف أعذبه العذاب المؤلم الشديد؛ لأن الحجة قامت عليه فأصبح معاندًا بالتكذيب فيُضَاعَفُ له العذاب؛ لأنه كفر عن عمد وعلى علم، وفيه أن من عصى الله على علم أعظم جرمًا ممن عصاه على جهل.

﴿١١٦﴾ ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾

هل أنت يا عيسى أمرت الناس أن يوحدوك من دون الله، ويؤلهونك أنت وأمك؟ والله يعلم كل شيء، ولكن ليكون النفي على لسان عيسى، فقال عيسى: بل أُنزِّهك يا رب عن هذه الفرية، وأبرأُ إليك من هذه التهمة، فما يحق لي ولا

ينبغي لي أن أقول هذا القول الشنيع، فأنت تعلم أني ما قلته، ولو قلت هذا لعلمته، فأنت الله لا إله إلا أنت لا معبود بحق سواك، ولا إله غيرك، وأنت تعلم ما في نفسي وأنا لا أعلم ما في نفسك، فعلمك محيط كامل شامل عام، وعلمي قاصر ناقص محدود؛ لأنك رب إله معبود، وأنا مخلوق عبد لك، فلا تخفى عليك خافية، ولا تعزب عن علمك غائبة.

﴿١١٧﴾ ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾

ما بلغت بني إسرائيل إلا ما كلفتني به لم أزد على ذلك ولم أنقص، ولم آت بشيء من عندي، وقد دعوتهم إلى عبوديتك وتوحيدك؛ لأنك الخالق الرازق المدبر وحدك، وأنا مخلوق مثلهم لا يحق لي أن أدعي الألوهية، أو أضيف إلى نفسي الربوبية، وأنا في حياتي كنت شاهداً على أعمالهم مدة مقامي فيهم، فلما رفعتني إلى السماء انتهى علمي بهم وأنت العالم بأعمالهم، السامع لأقوالهم، المطلع على أحوالهم، وأنت شاهد على كل نفس، عالم بكل سر مطلع على كل أمر.

﴿١١٨﴾ ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

إن عذبت هؤلاء القوم فأنت الرب وهم العبيد، وقد استحقوا هذا العذاب؛ لأنهم عبدوا سواك، فعذابك عدل لا ظلم فيه، وإن تجاوزت عنهم فأنت القوي الذي لا يُغالب، والقادر الذي لا يعجزه شيء، والحكيم في كل أفعاله، إن عذّب وإن غفر، فبعزتك قد تؤاخذ، وبحكمتك قد ترحم، تفعل ما تشاء بمن تشاء كما تشاء، عذابك عدل، ومغفرتك فضل.

﴿١١٩﴾ ﴿ قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾

فيخبر الله عيسى يوم القيامة يوم العدل الذي لا ظلم فيه، والصدق الذي لا يستطيع أحد أن يكذب فيه، أنه صادق فيما قال، وأنه - عليه السلام - إنما بلغ رسالة ربه كما أنزلها الله، فدعا إلى توحيد الله وحده، وأنه بريء مما قالته النصارى وافترت عليه، وأنه عبد لله خُلق بكلمة الله، يدعو إلى عبادة الله وحده، ومن صَدَّقَ وبَرَّ فجنات النعيم مصيره، والخلد الدائم منزله، والمكان الآمن مقيله، خلود بلا انتقال، وحياة بلا موت، وصحة بلا سقم، وشباب بلا هرم، وغنىً بلا عدم، مع رضا الله عنه؛ لحسن عمله ورضاه عن ربه لعظيم أجره، وهذا هو الظفر الكريم، والفوز العظيم، والنعيم المقيم مع رضوان الرحمن الرحيم.

﴿١٢٠﴾ ﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

الله - عز وجل - يملك ويتصرف ويدبر كل من في السموات والأرض، لا يخرج عن سلطانه أحد، ولا يعزب عن علمه شيء، ولايعجزه أمر، وقدرته نافذة للجميع لا راد لما قضى، ولا معطي لما منع، ولا مانع لما أعطى، لا يحول حائل عن مراده، ولا يَرُدُّ رادٌّ قضاءه، جل في علاه، فله كمال الملك وتمام القدرة.

مكية

سورة الأنعام

ترتيبها ٦ | آياتها ١٦٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿١﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾

يُعلّم الله عباده أن يحمدوه على تمام إنعامه وكمال إحسانه وبديع خلقه وإتقان صنعه؛ لأنه يستحق أكمل المحامد، وأجل المدائح، وأجل الثناء، فهو الذي أنشأ خلق السموات والأرض، هذا الخلق العظيم المحكم المتقن الجميل المتناسق، الذي يحير العقول ويدهش الأذهان ويذهل البصائر، وخلق الليل والنهار بما فيهما من ظلمة ونور للنوم والراحة والعمل والمعاش وكسب العلم والإنتاج، وبعد هذا كله من الخلق والإبداع لهذه المخلوقات الباهرة والآيات الظاهرة يأتي الكفار يسوون بينه وبين الأصنام التي لا تخلق ولا ترزق ولا تدبر ولا تحيي ولا تميت، فتبًا لهم على هذا السخف والحمق والجهل.

﴿٢﴾ ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾

هو وحده - سبحانه - الذي خلق أباكم آدم من طين، ثم خلق ذريته من بعده من ماء مهين، وجعل لكل واحد منكم عمرًا محددًا لا يتجاوزه، وجعل وقتًا معلومًا للبعث بعد الموت وهو يوم القيامة، لا يطلع على علمه إلا الله وحده، ثم يأتي المشرك ليشك في البعث بعد هذه الدلائل والبراهين.

﴿٣﴾ ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾

وهو - سبحانه - الذي له الألوهية والعبودية وحده، يعبده ويوحده من في السموات من الملائكة ومن في الأرض من المؤمنين، وهو يعلم ما أخفوا من النيات وما أسروا وما أعلنوا من القول والعمل، وما كسبوا من خير وشر، وحسن وقبيح؛ ليوفيهم الثواب والعقاب يوم القيامة.

﴿٤﴾ ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾

وما نبين لهؤلاء الكفار من دليل ساطع وبرهان قاطع على صحة الألوهية لله وصدق رسالة محمدﷺ إلا وهم غير مبالين بها وقابلين لها ولا متفكرين فيها، بل هم في إعراض وغفلة.

﴿٥﴾ ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾

فهم أصلاً ما قبلوا القرآن الذي هو أعظم معجزة، بل كذبوا به وردّوه وشكُّوا في صحته، فدعهم فسوف يظهر لهم سوء صنيعهم حين يرون العذاب، ويدركون قبح فعلهم إذا عاينوا العقاب؛ لأنهم سخروا من الرسالة والرسول، واستهزؤوا بآيات الله البينات، فهم أعرضوا، ثم كذبوا، ثم استهزؤوا.

﴿٦﴾ ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾

أما بلغ هؤلاء الكفار أخبار الأمم قبلهم كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، أما شاهدوا آثارهم وسمعوا بمصارعهم لما كذبونا؟ فلماذا لا يتعظون ويعتبرون، فإننا أعطينا تلك الأمم من القوة والتمكين والنعم ما لم نُعطِه كفار مكة، بما في ذلك إنزال الغيث المدرار الذي تحيا به الزروع والثمار والخضراوات والأشجار، وأجرينا لهم الأنهار من تحت بيوتهم،

فهم في حدائق غناء وبساتين فيحاء، وغذاء وماء، ولكنهم ما شكروا بل كفروا، فعاقبناهم عقابًا شديد بسبب تلك المخالفات والتكذيب بالرسالات، فاحذروا أن نأخذكم كما أخذناهم، فقد أفنيناهم ثم خلقنا أجيالاً من بعدهم متعاقبة، فما نقص في الملك شيء ولا تغيّر في القدرة ذرة.

٧ ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾

وهؤلاء الكفار فجرة معاندون لن يؤمنوا أبدًا حتى لو نزلنا القرآن في ورق مسطور، ومصحف منشور، فأبصروه ووضعوا أيديهم عليه لما صدقوا ولقالوا: نحن مسحورون بهذا السحر ولا أصل لهذه الأوراق والصحف؛ لعتوهم وتمرُّدهم.

٨ ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾

يقول كفار مكة: لماذا لم يُنَزَّل على محمد ملك من ملائكة السماء نراه جهرةً يشهد له أنه نبي حتى نصدّقه، ولو استجبنا لهم وأنزلنا ملكًا ورأوه كما طلبوا ثم كفروا لعجلنا هلاكهم بلا انتظار، ولكان بعد ذلك استعجال الاستئصال بلا إمهال.

٩ ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾

ولو أرسلنا الرسول ملكًا من الملائكة لأرسلناه في صورة رجل من البشر؛ لأن الناس لا يستطيعون مشاهدة الملك في صورته لعجز أبصارهم عن ذلك، ولو جاء الملك في صورة رجل لاختلط عليهم الأمر هل هو ملك في صورة رجل أم رجل من البشر؟

١٠ ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾

اصبر - يا محمد - ولا تحزن من تكذيب الكفار، فقد أرسلنا من قبلك كثيرًا من الرسل فكذبهم أقوامهم واستهزؤوا بهم فلك فيهم أسوة، فلست بأول من كُذّب، فلما سخر الكفار من أنبيائهم أخذناهم بأشد العقوبات، ونكّلنا بهم جزاء فعلهم القبيح من السخرية بالأنبياء والاستهزاء بالرسل.

١١ ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴾

أيها المستهزئون، سافروا في نواحي الأرض وانظروا آثار الهالكين وديار المكذبين، كيف محونا رسومها بالعذاب، ودمرنا عمارها بالخراب، ومزّقنا أهلها بأنواع العقاب، فهل من معتبر لما شاهد؟ وهل من متعظ لما سمع؟

١٢ ﴿ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

قل - يا محمد - للمشركين: لمن هو ملك ما في السموات والأرض؟ فأخبرهم أن الملك لله كما تعترفون بذلك، فلماذا لا تعبدونه وتوحدونه كما شهدتم أنه الرب الخالق وحده؟ وهو - سبحانه - كتب على نفسه الرحمة، ورحمته سبقت غضبه، فلا يعجل بالعقاب ولا يأخذ قبل الإنذار، ويقبل توبة من تاب، وليجمعنكم ربكم ليوم الحساب والجزاء لا شك في ذلك ولا ارتياب، والمشركون خاسرون؛ لأنهم أشركوا بالله ولم يصدقوا بلقائه ولم يُقِرُّوا برسالة محمد ﷺ.

١٣ ﴿ وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾

والله يملك كل ما سكن وتحرك في الوجود وغشيه الليل والنهار، سواء أكان خافيًا أم ظاهرًا فإنه لا يخفى عليه شيء، يسمع الأقوال ولا تختلط عليه الأصوات، ويعلم الظواهر والخفيات والأعمال والنيات.

١٤ ﴿ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾

قل - يا محمد - للمشركين: كيف أتخذ من يتولى أموري وينصرني غير الله ربي، وهو خالق السموات والأرض وخالق من فيهن، وهو واحد أحد يرزق كل أحد ولا يرزقه أحد؛ لأنه صمد، وقد أمرني ربي أن أكون أول منقاد له بالعبودية، ومستسلم له بالألوهية، ونهاني عن الشرك؛ لأنه أرسلني بالتوحيد؛ لأدعو إليه سائر العبيد.

١٥ ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾

قل - يا محمد - للمشركين: إنني وأنا رسول من عند الله أخاف أن يعذبني ربي عذابًا شديدًا إذا خالفت أمره، وعبدت غيره، وأشركت معه سواه، فكيف بكم أنتم وقد أشركتم وأعرضتم.

١٦ ﴿ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴾

من يَمْنَعُهُ الله من العذاب الشديد يوم الوعيد، إذا أتى بالتوحيد، فقد شمله برحمته وعفوه، وهذا ظفر عظيم وفوز كبير؛ لأنه أدرك المطلوب ونجا من المكروه.

١٧ ﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

أيها الإنسان، إذا أرادك الله بضر من فقر ومرض وبلاء فلا يدفعه عنك غير الله، وإذا أرادك بخير من غنىً وصحة وتوفيق فلا يرد خيره عنك راد، ولا يمنع فضله مانع؛ لأنه على كل شيء قادر إذا قضى أمضى، وإذا قدّر اقتدر.

١٨ ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾

والله غالب بأمره فوق عباده قهرهم بالجبروت؛ لأنه قهّار لكل جبار، فأطاعه التقي بالأمر، وذلَّ له المتكبر بالقهر، وضع الأشياء مواضعها بحكمة وإتقان، وعلم كل خافٍ عن العيان، فبحكمته قدر الأقدار، وبعلمه علم الأسرار، فهو مستحق لأنْ يعبد ويوحد ولا يشرك به شيئًا، وفي الآية إثبات العلو للعزيز الغفار، والفوقية للكبير الجبار بما يليق بجلاله ويتفق مع كماله.

١٩ ﴿ قُلْ أَىُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾

قل - يا محمد - للمشركين: ما أعظمُ شاهد على صدق رسالتي وإثبات نبوتي، قل: الله أعظم شاهد على ذلك، وهو العالم بما قلت لكم وما رَدَدْتم عليّ، وأنزل عليّ القرآن لأنذركم به من عذاب الله إن خالفتموه، وأُنْذِر وأُخَوّف به كل من وصل إليه هذا القرآن من البشر كافة، وإذا كان الله خالق الخلق ورازقهم فكيف تقرون بألوهية غيره معه، وتشركون به، ولكنني لا أقر على ما أقررتم به من الشرك، بل أنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، فلا أقر بزور ولا أشهد على جور، وأبرأ إليه من كل شريك سواه، وأنا بريء من عمل المشركين؛ داعية إلى توحيد رب العالمين.

٢٠ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ۘ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

اليهود والنصارى يعرفون محمدًا ﷺ بصفاته في التوراة والإنجيل كمعرفتهم لأبنائهم تمامًا، فكما أن الأب لا يضيع أوصاف أبنائه لتمام علمه بهم، فكذلك أهل الكتاب لا تختلف عليهم أوصاف النبي الأمي محمد ﷺ لوضوح أوصافه لديهم، لكنهم ردّوا الهدى واتبعوا الهوى فرجعوا بالخسران، وباؤوا بغضب الرحمن، حينما كذبوا بالذكر الحكيم ولم يتبعوا النبي الكريم.

﴿٢١﴾ ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴾

لا أحد في العالم أكبر ظلمًا وأعظم إثمًا ممن ادعى أن لله شركاء، ونسب إليه صاحبة وأبناء، أو جحد أدلة وحدانيته وبراهين ألوهيته، وشواهد نبوة رسوله، ومن فعل ذلك فهو ظالم، والظالم لا يوفق للصواب ولا ينجو من العقاب.

﴿٢٢﴾ ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾

ألا يتذكر هؤلاء المشركون يوم نجمعهم ليوم لا ريب فيه فنسألهم أين الآلهة التي كنتم تعبدونها من دون الله؟ لماذا لا ينصرونكم ويدفعون عنكم العذاب ويشفعون لكم في رفع العقاب؟

﴿٢٣﴾ ﴿ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾

ثم لم تكن حجتهم الباطلة ودعواهم الكاذبة بعدما رأوا تخلي آلهتهم عنهم إلا أن ادعوا أنهم ما عبدوهم في الدنيا، وما أشركوا مع الله غيره، كذبًا منهم وبهتانًا.

﴿٢٤﴾ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ۚ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

ألا تعجب - يا محمد - من هؤلاء يشركون مع الله غيره في الدنيا، ويكذبون على أنفسهم في الآخرة إذ يتبرؤون من هذه الآلهة ويقسمون ما عبدوها في الدنيا من دون الله، فجمعوا بين الكفر والكذب وسوء الفعل وقبح العذر، شرك في العمل وكذب في القول، وقد ذهبت عنهم في الآخرة شفاعة آلهتهم التي ظنوا أنها تنفع أو تدفع أو تشفع.

﴿٢٥﴾ ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ ۖ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَـٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّآ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾

من هؤلاء المشركين من يستمع لك - يا محمد - إذا قرأت القرآن لكن سماعًا بلا فهم ولا وعي ولا انتفاع؛ لأن الهوى غطى على منافذ البصيرة، وحجب على القلوب، فهي في أغطية لا تفقه، والأسماع في صمم لا تسمع ولا تعي، ولو عرضت لهم كل الآيات الدالة على صدقك وجميع المعجزات الشاهدة برسالتك لكذبوا وجحدوا، وبعدها يأتونك ليقولوا: كل هذه الآيات والمعجزات من أساطير الأولين وخرافات المتقدمين لا حقيقة لها.

﴿٢٦﴾ ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ۖ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

وهؤلاء المشركون ينهون الناس عن تصديق الرسول ﷺ ويبتعدون عن اتباعه، فهم ضالون مضلون، يكفرون ويَصُدّون غيرهم، وهم لا يضرون بهذا الإعراض إلا أنفسهم، ولا يسعون إلا في هلاكهم، ولكنهم لا يحسون بخطورة ما يفعلون، ولا يدركون ضرر ما يصنعون .

﴿٢٧﴾ ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

وليتك - يا محمد - تشاهد هؤلاء المشركين إذا عُرِضُوا على النار وأبصروا عذاب الجبار وشاهدوا الفظائع والأنكال، والسلاسل والأغلال، حينها يقولون: يا ليتنا نعود أحياء إلى الدنيا فنؤمن بالله ونصدق رسوله. لكن هيهات فما فات مات، وما بقي إلا الندم والحسرات، فيالهول ذلك المشهد ما أعظمه وأشده .

﴿٢٨﴾ ﴿ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُوا۟ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَلَوْ رُدُّوا۟ لَعَادُوا۟ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ ﴾

وما صَدَقُوا فيما قالوا: بل إنه ظهر لهم يوم العرض الأكبر صدق الرسول ﷺ وصحة الرسالة، ولو أنهم كانوا يدعون من تبعه لخلاف هذا، ولو رُدّوا مرة ثانية إلى الدنيا لعادوا يكذبون بآيات الله مثلما كذبوا بها من قبل.

﴿٢٩﴾ ﴿ وَقَالُوٓا۟ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴾

يقول المشركون: لا بعث ولا نشور، فإذا متنا فلن نخرج من قبورنا للحساب، فالحياة حياتنا الدنيا فقط.

﴿٣٠﴾ ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾

ولو شاهدت - يا محمد - هؤلاء الكفار يوم القيامة إذا قاموا للحساب، ورأيت ما أصابهم من خوف، إذا قيل لهم: أليس هذا البعث حقًا وكنتم تكذبون به؟ فيقولون: بلى والله إنه حق، فيُقال لهم تبكيتًا: هذا العذاب الذي تصلونه بسبب كفركم بالله وتكذيبكم رسول الله ﷺ.

﴿٣١﴾ ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا۟ يَٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾

قد خاب سعي الكفار وضل عملهم؛ لأنهم كذبوا باليوم الآخر، فإذا قامت الساعة وشاهدوا عاقبة تكذيبهم وفوجئوا بهذا الأمر المذهل صاحوا من الخوف متحسرين على سوء صنيعهم وقبح فعلهم، وقد ألزموا عاقبة عملهم ونتيجة تكذيبهم، فما أسوأ تلك الأعمال، وما أشنع تلك الأفعال .

﴿٣٢﴾ ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾

ما هذه الحياة الدنيا إلا متاع قصير كخيال النائم، وهي غرور باطل، وظل زائل، والآخرة أفضل وأسعد لمن اتقى ربه وعمل صالحًا؛ فهو في دار نعيم دائم، أفلا تتدبرون هذا الأمر فتنظروا في قصر الدنيا وسرعة انقضائها وتفاهة شأنها وفنائها، والآخرة ونعيمها المقيم في جنات الخلود فتعملوا لها.

﴿٣٣﴾ ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾

الله يعلم - جل في علاه - أنك - يا محمد - يصيبك الحزن من تكذيب قومك لك واستهزائهم بك، فاصبر فإنهم يعلمون صدقك في الباطن، وإنما يكذبونك في الظاهر استكبارًا وعتوًا، فيردون الآيات الباهرة، والمعجزات الظاهرة التي بعثت بها.

﴿٣٤﴾ ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

فاصبر -يا محمد-، فلك أسوة فيمن كُذِّبَ من قبلك من الرسل فصبروا على تكذيب قومهم، وتحملوا الأذى في سبيل الله، وواصلوا الدعوة والجهاد حتى نالوا نصر الله، ولا يمكن أن تتغير كلمات الله التي أنزلها عليك من الوعد بالنصر وحسن العاقبة والانتقام من الكفار، ولقد أَنْزَل عليك - يا محمد - أخبار الرسل قبلك، وكيف نصرهم الله وأهلك أعداءهم، فاقتد بأولئك الأنبياء وتسل بهم.

﴿٣٥﴾ ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾

وإن كان اشتد عليك -يا محمد- تكذيب هؤلاء المشركين، فإن قدرت على أن تسلك طريقًا في باطن الأرض، أو تصعد درجًا إلى السماء لتأتي بمعجزة على صدقك وبرهان على صحة ما جئت به غير ما آتيناك من الأدلة والبراهين فافعل فلن يستجيبوا لك، ولو أراد الله أن يهديهم لهداهم، ولكن اقتضت حكمته ألا يوفقهم للإيمان، فلا تكن ممن كثر تحسره، وزاد جزعه فجهل أسرار القضاء ومقاصد الحكمة.

﴿٣٦﴾ ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ ۘ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾

إنما يتبعك -يا محمد- ويؤمن بما جئت به مَنْ عنده سماع قبول واستجابة، والكفار كالموتى؛ لأن الحياة حقيقة إنما هي في الإيمان، فالكفار أموات القلوب، وأما أموات المقابر فسوف يخرجهم الله منها أحياء ليحاسبهم على أعمالهم يوم القيامة.

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ ۚ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يُنَزِّلَ آيَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ٣٧

وقال المشركون: لماذا لا يُنَزِّل اللهُ على محمد معجزة خارقة للعادة، فقل لهم: إن الله لا يَعْجَزُ عن ذلك فهو على كل شيء قدير، لكنه ينزل الآيات بحكمة منه متى ما أراد، ولكن المشركين لا يعلمون.

﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ ٣٨

ما على وجه الأرض من دابة ولا في السماء من طائر إلا جماعات مثل الناس في التوافق والاختلاف، وبينهما وبين الناس أوصاف متشابهة، ما أغفلنا شيئًا من المخلوقات وغيرها إلا كتبناه في اللوح المحفوظ تقديرًا وتدبيرًا، وسوف يعود الجميع إلى ربهم ليحاسبهم على كل ما فعلوه .

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ٣٩

الذين كذبوا بالقرآن والسنة لا يسمعون سماع قبول ولا استجابة، ولا ينطقون بالصدق والحق، وهم في ظلمات كفرهم وأهوائهم حائرون لا يهتدون إلى رشاد ولا يُوفّقون لسداد، ومن أراد الله إضلاله أضلّه فلا يهديه أحد، ومن أراد أن يهديه هداه فلا يَضِلُّ أبدًا، فلا مضل لمن هدى ولا هادي لمن أضل.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ٤٠

أخبروني - أيها المشركون - إذا أتاكم عذاب الله في الدنيا: هل هناك أحد يدفع عنكم العذاب؟ أو إذا قامت القيامة بأهوالها هل ينجيكم من العذاب ما كنتم تعبدونهم من دون الله في الدنيا إن كنتم مصيبين في زعمكم أنهم ينفعون ويضرون من دون الله؟ فلماذا ما جلبوا لكم نفعًا ولا دفعوا عنكم ضرًا؟!

﴿ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴾ ٤١

الواقع أنه إذا اشتدت الكربات، وحلّت الأزمات لا تدعون إلا الله وحده وتتخلون عن دعوة الأصنام المنصوبة والأوثان المنحوتة؛ لأن عبادتكم لها زور وبهتان، وكذب وخسران، وفي الشدة يظهر الحق ويبطل الباطل.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُم بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴾ ٤٢

ولقد بعثنا قبلك - أيها الرسول - رسلاً إلى أقوامهم فكذبوهم فأصبناهم في العيش بالفقر والضيق ونقص الأموال والآفات، وأصبناهم في الأجسام بالأمراض والآلام، عسى أن يعودوا إلى ربهم بالدعاء والتضرع، ويتوبوا إليه من الذنوب، ويتذللّوا له بالطاعة.

﴿ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ ٤٣

فلماذا لما جاءهم بلاؤنا لم يخضعوا لنا، ولم ينقادوا لأمرنا ويصدقوا رسلنا؟! ولكن السبب قسوة قلوبهم التي لا ينفع فيها الذكر، ولا تجدي فيها الموعظة، ثم إن الشيطان حَسّن لهم التكذيب بآياتنا وعصيان أمرنا، فما اتعظوا بالآيات، ولا اعتبروا بالابتلاءات.

﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾ ٤٤

فلما عصونا وكذبوا بآياتنا وما أجدى فيهم البلاء، ولا ردتهم إلينا البأساء فتحنا عليهم أبواب الرخاء، فصببنا عليهم الدنيا بكثرة الأموال والأولاد وصحة في الأجسام، ورفاهية في العيش حتى أصابهم البذخ ووقعوا في الترف، فركبوا مركب الأشر، وسلكوا طريق البطر، فأعجبهم الثراء، وسرّتهم النعماء، وخدعهم الرخاء، عندها فاجأناهم بالعذاب، فسلبناهم من كل نعمة، وأنزلنا بهم أشد نقمة، فانقطعوا عن كل خير، وأفلسوا من كل فضل، وخسروا كل شيء.

﴿٤٥﴾ ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾

فأُهلك هؤلاء الكفار الذين ظلموا أنفسهم بالشرك بالله، ولم يبق لهم أثر، والشكر والثناء لله على حسن فعله في إهلاكهم؛ لأن في ذلك نصرة للحق ومحقًا للباطل، والله يُحمد على كل حال؛ فلا يحمد على مكروه سواه؛ لأن رحمته فضل وعذابه عدل.

﴿٤٦﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ﴾

قل لهؤلاء الظالمين: لو أن الله أصمكم فَذَهَب سمعكم، وأعماكم فذهبت أبصاركم، وأغلق على قلوبكم فأصبحتم بلا فهم، هل هناك إله آخر غير الله يرد عليكم الأسماع والأبصار ويفتح على قلوبكم؟ تأمل كيف تنوع لهم الأدلة والبراهين ثم يعرضون عن الاستجابة ويأبون القبول.

﴿٤٧﴾ ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾

أخبروني - أيها الظالمون -: لو نزل بكم العقاب فجأة بلا إنذار، أو أخذكم وأنتم ترون العقاب بالأبصار، فهل يستحق العقاب إلا من ظلم نفسه بِرَدِّ الحق وتكذيب الرسل؟

﴿٤٨﴾ ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

والرسل لا نرسلهم إلا ليبشروا من آمن بالجنة، وينذروا من كفر بالنار، فمن آمن بالله وصدق الرسل فلا يخاف ما أمامه من أهوال، ولا يحزن على ما خلفه من أعمال.

﴿٤٩﴾ ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾

والذين كذبوا بآياتنا كلها القرآنية والكونية، يمسّهم عذابنا بسبب خروجهم عن طاعتنا وعدم اتباعهم رسولنا.

﴿٥٠﴾ ﴿قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾

أخبر المشركين - يا محمد -: أنك لا تملك خزائن الأرض فتعطي من تشاء وتمنع من تشاء، ولا تعلم الغيب إلا ما أطلعك الله عليه، ولست ملكًا من الملائكة وقل لهم: إنّما أنت بشر أوحى الله إليك القرآن وأرسلك إليهم، وأخبرهم - يا محمد -: أن الكافر كالأعمى، والمؤمن كالبصير، فذاك عَمِي عن آيات الله، وهذا أبصرها فلا يستويان، أفلا تتأملون وتتدبرون آيات الله الدالة على وحدانيته وصدق ما أنزل على رسوله.

﴿٥١﴾ ﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾

وخوّف بكتاب الله المؤمنين الذين يتيقنون من لقاء ربهم يوم القيامة، فليس لهم غير الله ولي يجلب لهم النفع ويدفع عنهم الضر، ولا شفيع ينفعهم عند الله في رفع العذاب لعلهم يخافون الله بفعل ما أمر وترك ما نهى عنه.

﴿٥٢﴾ ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾

ولا تبعد عن مجلسك الضعفاء والفقراء الذين يتعبدون لربهم بالذكر والدعاء أول النهار وآخره مخلصين لله، فأنت لن تُسأل عن أعمالهم وهم لن يُسألوا عن عملك، فإن أبعدتهم عن مجلسك فقد أخطأت وما أصبت، وجُرت وما عدلت.

﴿٥٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾

وهذه سنة الله يبتلي بعض عباده ببعض، يعطي بعضهم الغنى والقوة والصحة ويسلبها من بعضهم؛ ليحتاج بعضهم إلى بعض، ويعلم من شكر ومن صبر، ويقول الكفار الأغنياء للمؤمنين الفقراء: أهؤلاء المساكين هداهم الله للإسلام وتركنا؟! فالجواب: إن الله أعلم بمن يشكره ويستحق الإيمان فيهديه.

﴿٥٤﴾ ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

وإذا أتاك - يا محمد - المؤمنون المصدقون بما أُنْزِل عليك من الآيات يسألونك عن التوبة فحيهم بالسلام، وألن لهم الخطاب، وأخبرهم أن الله هو التواب، رحمته وسعت كل شيء، وقد أوجب على نفسه أن يتوب على من تاب، فمن ارتكب ذنبًا وجهل عاقبته وأغضب ربه - وكلُّ عاصٍ جاهل وإن بلغه التحريم - ثم أقلع عن ذنبه وندم على فعله وأحسن عمله، فإن الله يمحو ذنوبه، ويتغمده برحمته؛ لأنه واسع المغفرة كثير الرحمة.

﴿٥٥﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾

ومثل هذا البيان الذي أنزلناه عليك نبين الأدلة ونوضح الحجج ونظهر المعجزات، ليظهر الحق ويبطل الباطل وتتضح طريق المنحرفين المكذبين للأنبياء.

﴿٥٦﴾ ﴿قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۚ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾

قل - يا محمد لعبدة الأوثان -: إن ربي نهاني أن أشرك به شيئًا وأن أعبد غيره، ولن أتبع أهواءكم، فأنتم ضلال، بل أتبع هدى ربي الذي أوحاه إليّ، ولو سلكت طريقكم لضللت عن الصراط المستقيم، ولتركت الهدى الذي أكرمني الله به.

﴿٥٧﴾ ﴿قُلْ إِنِّى عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَكَذَّبْتُم بِهِۦۚ مَا عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ﴾

قل لهؤلاء الكفار: إني على محجة واضحة وصراط مستقيم من التوحيد والعبادة، ولكنكم كذبتم بهذا الوحي، ولا أستطيع أن أعجل لكم العذاب الذي تطلبونه، فأنا عبد رسول لا أملك إلا البلاغ، فالله الذي عنده الحكمة والتقدير في تعجيل العذاب أو تأخيره، وهو - سبحانه - يبين الحق ويوضح الهدى وهو وحده، الذي يفرق بين الحق والباطل، ويقضي بحكمه بين المؤمنين والكافرين.

﴿٥٨﴾ ﴿قُل لَّوْ أَنَّ عِندِى مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾

أخبر هؤلاء المشركين - يا محمد - أنه لو كان بيدك تقديم العذاب الذي يستعجلونه لأوقعته بهم وانتهى الأمر بينك وبينهم، والله عليم بمن يستحق العذاب ممن تجاوز الحد بالشرك وأعرض عن الإيمان.

﴿٥٩﴾ ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾

والله - وحده - عنده خزائن الغيب لا يعلمها إلا هو ولا يدري بها سواه، كعلم الساعة، ونزول الغيث، وعلم ما في الأرحام، وما تكسب كل نفس غدًا، ومحل موت العبد، وهو مطلع على خفايا ما في البر والبحر ويعلم متى تسقط كل ورقة من شجرة وكل حبة في مسارب الأرض يعلمها، ومطلع أين هي، وكل شيء رطب بالحياة من إنسان وحيوان ونبات وغيره، أو يابس من ذلك كله، فهو مكتوب عنده في كتاب ظاهر بيّن، وهذا الكتاب هو اللوح المحفوظ.

﴿٦٠﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾

وهو - سبحانه - الذي يمسك أرواحكم بالنوم في الليل حتى تصبحوا كالأموات، وهو مطلّع على ما فعلتم في نهاركم من أعمال، ثم يوقظكم من نومكم كأنه بعثكم من موتكم، لينتهي الأجل المحدود والعمر المعدود في هذه الحياة، ثم يعيدكم إليه يوم القيامة فيحاسبكم بما فعلتم ويقرركم بما اكتسبتم ويجازيكم على ما صنعتم.

﴿٦١﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾

والله - سبحانه - الذي قهر عباده قهر علو وقدر وقوة وجبروت، فله الفوقية المطلقة بما يليق بجلاله، كل مخلوق ذليل لعظمته خاضع لحكمه، ضئيل في ملكه، ويوكل بكم ملائكة يحفظون ما تعملون، ويحفظونكم مما تخافون، فإذا حانت وفاة أحدكم قبضت الملائكة روحه، وهم لا يهملون ما أوكل إليهم ولا يضيّعون ما كلفوا به، بل يؤدّون ما أمروا به في إتقان.

﴿٦٢﴾ ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾

ثم رجع الأموات إلى ربهم الحق - جل في علاه - ليوفيهم حسابهم، ليقضي بالعدل ويحكم بالفصل، وهو أسرع من حاسب، حيث يحاسب الجمع الكثير في الوقت القليل، ويفصل بين الخلائق في زمن يسير عليه؛ لكمال القدرة وتمام الحكمة.

﴿٦٣﴾ ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

قل - يا محمد - للمشركين: من الذي ينقذكم من مخاوف البر وأهواله، ويخرجكم من أخطار البحر ومهالكه غير الواحد الأحد الذي أشركتم معه غيره في العبادة؟ مع العلم أنه إذا اشتد بكم الخطب وضاق بكم الكرب التجأتم إليه بذل وخضوع تنادونه جهارًا وتناجونه سرًّا وتعاهدونه أنه إذا أنقذكم من هذا الخطر وسلمكم من هذا الهول لتوحدونَّه بالعبادة ولا تشركون به شيئًا.

﴿٦٤﴾ ﴿ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾

قل: الله وحده هو الذي يتولى إنقاذكم من هذه الأخطار ولا يستطيع أحد غيره إنقاذكم، وهو الذي ينقذكم من كل خطر ألم بكم، ويسلمكم من كل هول حل بكم، ويفرج عنكم كل شدة، وبعد هذه النجاة تشركون مع الله غيره في العبادة، فوقت الرخاء عاصون، وفي الشدة طائعون متضرعون.

﴿٦٥﴾ ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ ﴾

قل لهم: الله وحده هو الذي يستطيع بقدرته أن يرسل عليكم عذابًا من السماء كالصواعق والرجم والطوفان ونحوها، ويهلككم من تحتكم بالخسف والزلازل وغيرها، أو يجعلكم متفرقين فيخالف بين قلوبكم فتقتتلون ويبيد بعضكم بعضًا، وتدبر كيف نسوق لهم أنواع العظات ومختلف البراهين الواضحات لعلهم يفقهون الدليل ويتبعون الرسول، ويميّزون بين الحق والباطل، لكن هيهات، رانت الذنوب على القلوب؛ فعميت عن هَدْي علام الغيوب، فالضال أعمى عن الدليل، خارج عن سواء السبيل.

﴿٦٦﴾ ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾

وكذب المشركون بكتاب الله وهو الحق كله، والصدق جميعه، فقل لهم: يا محمد ما أنا بحفيظ على أعمالكم لأجازيكم، ولا برقيب على ما أخفيتم فأعلم سرائركم، فمن الله البيان وعلى رسوله ﷺ البلاغ، وعلى الناس الانقياد، ثم حساب الجميع على الله.

﴿٦٧﴾ ﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾

لكل أمر نهاية ينتهي إليها، ولكل شيء عاقبة يصير إليها؛ فيظهر خيره وشره وحقه وباطله، وسوف يَظْهَر لكم - أيها المكذبون - سوء فعلكم عند نزول العقاب بكم، فالأعمال لها آجال، وكل عامل سيلقى ما قدَّم حيث لا ينفع الندم.

﴿٦٨﴾ ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

وإذا أبصرت المكذبين بالقرآن يستهزئون بآياتنا ويضربون القرآن بعضه ببعض ويجادلون فيه جدال مراء وخصومة وشك فاترك مجلسهم واهجر اجتماعهم حتى يتكلموا في كلام غير هذا الخوض، وإذا نسيت فجلست معهم فإذا تذكرت فقم عنهم؛ لأنهم معتدون لا يوفقون لصواب، ولا يلهمون إلى رشاد.

﴿٦٩﴾ ﴿ وَمَا عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

ليس على من آمن بالله واتبع رسوله وأطاع أمره واجتنب نهيه محاسبة بسبب من استهزأ بآيات الله وسخر منها بعد البلاغ والنصح؛ فالمؤمن عليه أن يعظ العصاة وله مثل أجر من اهتدى بهداه وليس عليه إثم من ضل.

﴿٧٠﴾ ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَآ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أُبْسِلُوا۟ بِمَا كَسَبُوا۟ ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ ﴾

وأعرض عمن استهزأ بالدين وسخر من الشريعة، فحياته لعب وأعماله لهو، خدعته دنياه بزخرفها وغرته بفتنتها، فهجر الكتاب ونسي الحساب، وذَكِّرْ بكتاب الله من أجل ألا تفلس النفوس من الإيمان وتُرتَهن بالعصيان، فالذنب يوبق العبد، وليس لكل نفس إذا خسرت ولي يدفع ولا شفيع ينفع غير الله وحده، فهو ولي من تولاه، وناصر من دعاه، ولو قدمت النفس الهالكة كل فداء لتنجو من العذاب ما قبله الله؛ لأن الشرك لا غفران له، وهؤلاء المشركون هالكون بسبب أعمالهم، خاسرون لسوء صنيعهم، شرابهم الحميم مع العذاب الأليم، والنكال المقيم، في سواء الجحيم؛ لأنهم كفروا بالله وكذبوا رسله.

﴿٧١﴾ ﴿ قُلْ أَنَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

قل للمشركين: أنعبد أوثانًا لا تجلب لنا نفعًا ولا تدفع عنَّا ضُرًّا ونترك عبادة الواحد الأحد الذي يملك الضر والنفع وبيده كل شيء ونرجع إلى ظلمات الشرك بعد أن منَّ الله علينا بإخراجنا من هذه الظلمات إلى نور الإيمان، ويصبح مثلنا مثل من خدعته الشياطين وغرته وأضلته عن سوء السبيل ولم يسمع نصيحة أصحابه الذين ينادونه إلى الإيمان وينصحونه بترك عبادة الأوثان؛ فيتبع هواه ولا يسمع نصح من دعاه، فأخبر هؤلاء المعرضين بأن ما أرسلني به ربي من الهدى هو الصراط المستقيم والمنهج القويم، والله أوجب علينا أن ننقاد لدينه ونتبع رسوله ﷺ ولا نشرك به شيئًا؛ لأنه مُربي العباد بنعمه، ومتولي أمرهم وتصريف حياتهم. وملخص الآية يتمثل في التخلي عن الأوثان والتحلي بالإيمان.

﴿٧٢﴾ ﴿ وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

وأوجبنا عليكم إقامة الصلاة كما شُرِعت لتنهاكم عن الفحشاء والمنكر، وأوجبنا عليكم عمل الصالحات وترك المنكرات، فسوف تعودون إلى ربكم ليجازيكم بالحسنات ثوابًا وبالسيئات عقابًا.

﴿٧٣﴾ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾

الله وحده هو الذي خلق السموات والأرض بالحق ليُعْبدَ، ورزق من فيها ليُشْكَر وتذكّر إذا أراد الله أن يقيم القيامة بكلمة: (كن) فيكون في لمح الطرف أو أسرع، فقوله في ذلك حق ووعده صدق، فالمُلكُ له وحده يتصرف فيه كيف يشاء لا ينازعه في الملكوت عبد، ولا يشاركه في الجبروت أحد، ويظهر تمام ملكه يوم النفخة الثانية في الصور، يوم يُبعثر ما في القبور، ويحصَّل ما في الصدور، يعلم ما ظهر للعيون وما خفي عن الظنون، ومطلّع على الجهر والسر، وهو حكيم، كل صنعه بإتقان، وفعله بإحسان، وعطائه بامتنان، خبير بالنيات والخفيات، بلغ علمه أسرار الأشياء، وأحاط بتفاصيل الأموات والأحياء.

﴿٧٤﴾ ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً ۖ إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾

واذكر يوم حاجَّ إبراهيم أباه آزر وجادله وقال له: كيف تعبد أصنامًا لا تنفع ولا تضر، وتترك عبادة الله الواحد القهار، لقد انحرفت أنت وقومك عن الحق، وضللتم عن الرشد، وبان لي أن ضلالكم ظاهر؛ لأنكم أشركتم بالله، وتركتم عبودية الله، وفيها دعوة الابن لأبيه، والبدء بأصول توحيد الله، وأن الولاء لله، والرفق بالوالد ولو كان مشركًا.

﴿٧٥﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾

ومثلما وفَّقنا إبراهيم لسلوك طريق الهداية أطلعناه على ما في السموات والأرض من ملك باهر وبديع صنع ظاهر، مع آيات تدل على عظيم القدرة، وتمام الحكمة؛ ليرسخ إبراهيم في الإيمان؛ لأن من تدبر أبصر، ومن تفكر زاد يقينه، وعظم إيمانه، والكون كتاب مفتوح لكل معتبر.

﴿٧٦﴾ ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾

لما أقبل الليل وغطى العالم بظلمته وشاهد إبراهيم كوكبًا منيرًا أراد أن يناظر قومه ليستدرجهم للوصول إلى الحق بضرب المثل بالكوكب، فقال لهم: هذا ربي، على سبيل المناظرة ولفت أنظارهم ليصل بهم إلى حقيقة بطلان عبادة النجوم التي يعبدونها، فلما غاب الكوكب، قال إبراهيم: أنا لا أحب إلهًا يغيب؛ إذًا فهذا الكوكب لا يصلح أن يكون إلهًا؛ لأن النقص يدخله، والإله لابد أن يكون قائمًا على كل نفس حيًا قيومًا.

﴿٧٧﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾

فلما شاهد إبراهيم القمر قد طلع، وبنوره سطع، قال ليستنزل قومه عن رأيهم: هذا القمر ربِّي، فلما غاب القمر، قال إبراهيم طالبًا الرشد من ربه: إذا لم يدلني ربي على الحق في هذه المسألة وهي (من هو الإله الذي يستحق أن أعبده)، فسوف أصبح ممن غوى عن الصراط المستقيم، وحاد عن الحق القويم، بشركه بالرحمن الرحيم.

﴿٧٨﴾ ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾

فلما شاهد إبراهيم الشمس طلعت: قال لقومه على سبيل التمثيل والمحاجّة: هذه الشمس هي ربي، فهي أكبر من القمر والكواكب، ولكن الشمس غابت، إذًا لا تصلح لأن تُعبد، فأنا إذًا أبرأ إلى الله من عبادة غير الله من شمس وقمر وكواكب ونجوم وأوثان وأصنام وغيرها؛ لأن الذي يستحق العبادة هو الله وحده، أما هذه المخلوقات فلا يجوز صرف شيء من العبادة لها؛ لأنها مخلوقة مدبرة لا تملك نفعًا ولا ضرًا، ولا تملك موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

﴿٧٩﴾ ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

إني جعلت وجهة وجهي لربي الواحد، الأحد الذي خلق السموات والأرض ثابتًا على التوحيد، مائلاً عن الشرك، وأبرأ إلى الله من عمل المشركين، وهذا هو لب الدين وأساسه توحيد المعتقد والمنهج والبراءة من أعداء الله.

﴿٨٠﴾ ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۗ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾

وجادل إبراهيم قومه في مسألة الألوهية، فقال لهم: كيف تجادلونني في ألوهية ربي، وتوحيدي لخالقي بالعبادة وأنا على بيّنة من أمري، فالله قد ثبتني على الحق، وعصمني من الباطل، أما آلهتكم الباطلة من الأصنام والنجوم فلا أخافها، ولن يصلني منها ضرر إلا بمشيئة الله؛ لأن ربي يعلم كل شيء لا تغيب عن علمه غائبة، فما لكم لا تتدبرون فتعلمون أنه الله الذي يستحق العبادة ولا يستحقها غيره.

﴿٨١﴾ ﴿ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴾

كيف أخاف أوثانكم وهي لا تضر ولا تنفع وأنتم لا تخافون ربي الواحد القهار الذي بيده النفع والضر، مع العلم أن عبادتكم لها لا حجة لكم ولا دليل على صحتها، فهل أنا أحق بالأمن والسلامة وأنا موحد أم أنتم أحق بها وقد أشركتم وضللتم؟! أخبروني إن علمتم صحة ما سألتكم عنه من أنه من عبد الله وحده أحق بالأمن؟

﴿٨٢﴾ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾

الذين آمنوا بالله واتبعوا رسوله فحققوا الإخلاص والمتابعة ولم يخلطوا إيمانهم بالشرك فهؤلاء يؤمِّنهم الله من كل خوف وحزن، ويُسلِّمُهم من كل شر؛ لأنهم أتوا بأسباب النجاة، وهم الذين وفقوا للهداية الربانية ومعرفة الصراط المستقيم، فلا أمن بلا إيمان، ولا إيمان لمن أطاع الشيطان.

﴿٨٣﴾ ﴿ وَتِلۡكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيۡنَٰهَآ إِبۡرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوۡمِهِۦۚ نَرۡفَعُ دَرَجَٰتٖ مَّن نَّشَآءُۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٞ ﴾

وذلك برهاننا الذي علّمناه رسولنا إبراهيم حتى غلب به قومه، ونحن الذين نرفع بالعلم والحكمة من نريد من عبادنا مراتب يفضلون بها غيرهم، وربك حكيم فيما أعطى من هبات علمية ومنح دينية، عليم بمن يستحق العطاء ويشكر النعماء، فصاحب الدليل مرفوع، وحامل الأثر مقدر لشرف الحجة.

﴿٨٤﴾ ﴿ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ كُلّٗا هَدَيۡنَاۚ وَنُوحٗا هَدَيۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيۡمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾

ورزق الله إبراهيم إسحاق ابنًا، ويعقوب حفيدًا، ورزقهما الاستقامة على طريقه، وأعطاهما الكتاب والحكمة، وهدى نوحًا من قبل إبراهيم إلى صراطه القويم، ومن نسل نوح داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون، كلهم علمهم الحكمة وآتاهم النبوة وأرشدهم إلى الحق؛ لأنهم أحسنوا بحسن الاستجابة والقبول وجميل العمل، فجازاهم بالهداية إلى سبيله وشرّفهم بالرسالة، والله يثيب كل من فعل فعلهم واتبع طريقهم .

﴿٨٥﴾ ﴿ وَزَكَرِيَّا وَيَحۡيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلۡيَاسَۖ كُلّٞ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴾

وكذلك هدى الله ووفّق زكريا ويحيى وعيسى وإلياس لسلوك المنهج القويم، والصراط المستقيم، فهم أئمة هدى وأعلام إصلاح، حسنت أقوالهم، وصحت أعمالهم، وصدقت أحوالهم.

﴿٨٦﴾ ﴿ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطٗاۚ وَكُلّٗا فَضَّلۡنَا عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

وهدى الله للحق إسماعيل واليسع ويونس ولوطًا لمرضاته، وفضلّهم بنبوته وآياته، ورفعهم على سائر الأمة بالإمامة.

﴿٨٧﴾ ﴿ وَمِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡ وَإِخۡوَٰنِهِمۡۖ وَٱجۡتَبَيۡنَٰهُمۡ وَهَدَيۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾

والله هدى من أراد من آباء هؤلاء الأنبياء وذرياتهم وإخوانهم فاصطفاهم للهداية، ومنَّ عليهم بالرعاية، وتفضّل عليهم بالولاية، فهم على نهج قويم، ومذهب كريم من صدق العبودية، وتمام الطاعة.

﴿٨٨﴾ ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۚ وَلَوۡ أَشۡرَكُواْ لَحَبِطَ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾

هذا الهدى الذي عليه الأنبياء هو هداه وحده - سبحانه - بما أنزل عليهم من وحي ووفقهم به لكل خير، وهو يوفق من أراد من عباده لاتباعه والعمل به ولو أن الأنبياء -وحاشاهم من ذلك- أشركوا بالله لبطل سعيهم ولخسروا أعمالهم ولضلوا الطريق؛ لأن الشرك محبط لكل عمل، مفسد لكل حسنة، فكيف بغير الأنبياء، فيا من ضل من العبيد، هؤلاء الأنبياء يقابلون بالتهديد لو تركوا التوحيد.

﴿٨٩﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحُكۡمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكۡفُرۡ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدۡ وَكَّلۡنَا بِهَا قَوۡمٗا لَّيۡسُواْ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾

هؤلاء الرسل الكرام هم الذين شرّفهم الله بإنزال الكتب عليهم لهداية الناس، وآتاهم السداد في القول والعمل والرشاد، في الظاهر والباطن، وأكرمهم بالنبوة التي فيها العصمة والطهر والصلاح، فإذا كفر المشركون بما أوحاه الله إلى أنبيائه من كتب فقد اخترنا ووفقنا وهدينا غيرهم من المؤمنين الصادقين إلى قيام الساعة، يصدّقون بالكتاب ويتّبعون الرسول ويؤمنون بالله وينصرون الحقَّ ويخلصون لله العبادة.

﴿٩٠﴾ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡۗ قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرَىٰ لِلۡعَٰلَمِينَ﴾

هؤلاء الأنبياء الكرام - عليهم السلام - هم الذين وفقهم الله لطاعته، ونيل مرضاته بامتثال أمره، فأصلح أحوالهم، وسدد أقوالهم، وحسّن أفعالهم، فاتبِعْ سبيلهم، واقْتَدِ بهم، واقْتَفِ آثارهم، وقل - يا محمد - للمشركين: لا أطلب منكم على تبليغ الدين مالاً ولا عرضًا دنيويًا زائلاً، فعملي لوجه الله على نور من الله أرجو ثواب الله، وما هذا الدين الذي بُعثتُ به والرسالة التي حملتها إلا تذكيرًا لكل الناس، تدعوهم إلى الهدى، وتحذرهم من الضلال، فعسى أن تنفعكم الذكرى وتجدي فيكم الموعظة، وفي الآية أن شرع من قبلنا شرعٌ لنا ما لم يرد النهي، وأن الداعية لا يطلب أجرًا على دعوته إلا من الله.

﴿٩١﴾ ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۚ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾

وما عَظّمَ اللهَ من أشركوا به حق تعظيمه، ولا وقّره حق توقيره؛ لأنهم قالوا: إن الله لم يُنْزل الوحي على أحد من الناس؛ كذبًا منهم وزورًا، فقل لهم: من الذي أنزل التوراة التي بيد اليهود على موسى، وهم يجعلونها مجرد أوراق متفرقة لا ينتفعون منها بشيء، فما ناسبهم أظهروه وقالوا به وأفتوا به، وما لا يعجبهم جحدوه وكتموه وعطّلوا العمل به، فقد كتموا أخبار رسولنا ﷺ وآية الرجم وكثيرًا من الأحكام، وقد علمكم الله - أيها العرب - بالوحي ورسالة محمد ﷺ ما كنتم تجهلونه أنتم ويجهله آباؤكم قبلكم، فالله وحده الذي نزّل الكتاب وهدى من شاء وأقام الحجة وأوضح الدليل، فاترك هؤلاء الجهلاء في باطلهم يخوضون، وفي لهوهم يلعبون، فليسوا على بينة من أمرهم؛ لأن من ترك الحق ضل، ومن أعرض عن الهدى زل، فكلامهم كذب، وحياتهم لعب.

﴿٩٢﴾ ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾

هذا القرآن الذي أوحيناه إلى محمد ﷺ مبارك في تلاوته وتدبره والعمل به؛ لأنه سبيل فلاح ويوصل إلى كل نجاح، وهو يصدّق ما قبله من الكتب السماوية، والله أنزله على رسوله ليخوف ويحذر أهل مكة وما حولها من قرى العالم، ومن يُصَدِّق بيوم القيامة يُصَدِّق بأن القرآن حق من عند الله، وهؤلاء يحافظون على إقامة الصلاة في أوقاتها مثلما شرعها الله وبينها رسول الله ﷺ، فالكتاب مبارك، والرسول معصوم، والدعوة عالمية، والصلاة عمود الإسلام.

﴿٩٣﴾ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ ۖ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾

ليس في العالم أشد ظلمًا ممن ابتدع الكذب على الله - عز وجل - مثل من زعم أن الله لم يرسل رسولاً ولم ينزِّل كتابًا، أو زعم أن الله أوحى إليه وأرسله للناس، وهو مفترٍ فلا وحي عنده ولم يرسل برسالة، أو زعم أنه يستطيع أن يأتي بمثل القرآن المعجز الباهر المبارك، ولو أبصرت هؤلاء المكذّبين المستكبرين على آياتنا وهم في سكرات الموت ووقت نزع الروح والملائكة القابضون لأرواحهم يمدون أيديهم نحوهم بالعذاب وشدة النزع ويقولون لهم: هاتوا أنفسكم الشريرة لتخرج من أجسادكم النجسة؛ لتذوقوا الإذلال والألم الموجع؛ جزاءً لافترائكم على الله ونسبة ما يحرم إليه، والسخرية من آياته وتكذيب رسله، وبسبب استكباركم عن الانقياد لشرع الله والاستسلام لدينه واتباع رسله.

﴿٩٤﴾ ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾

ولقد عدتم إلينا يوم العرض الأكبر فرادى بلا أولاد ولا أموال ولا مَناصب ولا مُناصر ولا جنود ولا خدم ولا حشم، فلا مالٌ ينفع، ولا ولد يدفع، ولا ولي يشفع، بل أتيتم عراة حفاة غرلاً كما خلقتم، وخلفتم ما أعطيناكم من متاع وقوة وجاه وسلطة، وما نرى معكم هذا اليوم آلهتكم المزعومة من الأصنام والأوثان ونحوها التي كنتم تزعمون أنها تجلب لكم النفع وتدفع عنكم الضر، وتشفع لكم عند الله، وأن لها الحق أن تُعبد مع الله، لقد انتهت العلاقة بينكم وبينها، وبطل اعتقادكم فيها أنها تنفع وتضر، وعدتم بالخسران وغضب الرحمن، فما أحد أخسر صفقة منكم، وما أشد حسرتكم، فاجتمع عليهم الندم وشدة الألم وزلة القدم.

﴿٩٥﴾ ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾

الله وحده المستحق للعبودية؛ لأنه يشق الحبَّ فينبت منه الزرع، ويشق النَّوى فيخرج منه الشجر، وهو وحده الذي يخرج الحي من الميت، كالطفل من النطفة، والفرخ من البيضة، ويخرج الميت من الحي كالنطفة من الرجل والمرأة، والبيضة من الطائر، والنواة من النخلة، والحب من الزرع وغير ذلك، فمن يفعل ذلك فهو أهل أن يُعبد وحده - سبحانه - ويُؤلّه - تعالى - لا سواه؛ لأنه لا شريك له في الخلق، فيجب ألا يكون له شريك في العبودية، فالذي خلق وأوجد يجب أن يُعبد ويوحّد، فكيف يَصرِف المشركون العبادة لغيره، ويجعلون معه إلهًا آخر باطلاً وزورًا، وإثمًا وفجورًا.

﴿٩٦﴾ ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾

والله وحده شق الصباح من ظلام الليل فأخرج هذا البياض الوهاج من السواد الداج، وهيأ الليل لسكون كل متحرك، ففيه ينام الناس، وتراح فيه البهائم، وتأوي الطيور إلى وكناتها، والحشرات إلى مستقراتها، وسَيَّرَ الشمس والقمر بحساب لا يضطرب، وإتقان لا يختلف، بأوقات معلومة، وأزمنة محدودة، وبهما يُعرف حساب اليوم والشهر والسنة، ومقدر ذلك العزيز في ملكه، الذي قهر بسلطانه من غالبه، وتفرد بكماله عمن ساماه - جل في علاه - وهو عليم بتدبير الخليقة ومواقع النفع وأبواب المصالح، فبالعزة غلب بأمره فأمضاه، وبالعلم وضع القضاء موضعه الذي ارتضاه، فالعزة للتنفيذ، والعلم لحسن الاختيار.

﴿٩٧﴾ ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

والله وحده - سبحانه - هو الذي خلق النجوم الباهرة علامات ظاهرة، وجعل هذه العلامات الساطعة دلائل قاطعة، بها يهتدي من ضل في القفار والبحار، ومن أخطأ الطريق في الأسفار، فالسائر في الصحراء يستدل بنجوم السماء،

والملاح في الماء يهتدي بنورها الوضاء، وقد بيّنا البراهين الكونية والشرعية ليتفكر فيها من عنده علم ينفعه ليدله هذا العلم على عبودية ربِّه؛ لأن العلم طريق لمعرفة الله.

﴿٩٨﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴾

والله وحده - سبحانه - الذي خلقكم - أيها البشر - من أبيكم آدم - عليه السلام - ثم جعل مستقركم أرحام النساء، ومستودعكم أصلاب الرجال، وقد أوضحنا لكم الأدلة والبراهين في الكون والحياة والإنسان لمن عنده فهم يوصله إلى الحق، وتدبر يدلّه على الرشاد، أما الغافل فلا ينفعه الدليل، ولا يهتدي للسبيل، ففقه الحجة يدل على أوضح محجة.

﴿٩٩﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

والله وحده - سبحانه - الذي أنزل الغيث من الغمام، فأنبت به كل نبت أخضر، وأخرج به كل مزروع، ثم أخرج من الزرع حبًا مرصوصًا بعضه فوق بعض، فكل سنبلة منظومة بحبها في جمال بديع، وخلق متقن، وأخرج من طلع النخل عذوق الرطب الجميلة الدانية، لذيذة الطعم، بهية اللون، منظومة كاللؤلؤة شهية كالشهد، وأنبت بالماء بساتين العنب والزيتون والرمان ملتفة بألوان عجيبة، ومذاقات متنوعة، تدل على حكمة المبدع، وقدرة الصانع - جل في علاه - فألوانها متشابهة، وطعومها مختلفة، وقد تتفق في بعض الأشكال أو الطعوم أو اللون، وقد تختلف؛ حكمة من حكيم خبير، فتفكروا في ثمره إذا أثمر ونوّر وأزهر، من الذي خلق وصوّر؟ وتفكروا فيه إذا نضج واستوى كيف تغيّر طعمه ولونه ومذاقه، وأصبح مهيّأً للأكل، ففي هذا كله علامات على بديع صنع الخالق القدير، والحكيم الخبير، لكن لا ينتفع بهذه الدلالات إلا من آمن بالله وصدق برسالاته، واتَّبع شرعه، أما المعرض فقلبه منكوس، وفطرته خاوية، لا ينتفع بعبرة ولا يتعظ بآية.

﴿١٠٠﴾ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾

أما هؤلاء المشركون فقد اتخذوا مع الله شركاء من الجن، فعبدوهم وخافوهم ورجوهم من دون الله، والله وحده هو الذي خلقهم هم والجن، فحقه أن يُعبد وحده، كما أنه الخالق وحده، ولقد افترى هؤلاء المشركون على الله بنسبة البنين والبنات إليه - تعالى الله عن ذلك - وليس لهم علم بما ينبغي له - سبحانه - فهو ذو الجلال والإكرام الذي لم يلد ولم يولد؛ ولكنهم جهلوا حقه فافتروا عليه وقالوا ما لا ينبغي أن يُقال، فتنزه - سبحانه وتقدس جلَّ اسمه - عن وصفهم القبيح وفريتهم الشنعاء، فهو - سبحانه - لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا، بل كان ولم يزل أحدًا فردًا صمدًا، فالله قد وصف نفسه ووصفه رسوله قبل وصف الواصفين، فـ «سبحانه» لنفي النقص و«تعالى» لإثبات الكمال.

﴿١٠١﴾ ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

والله وحده هو الذي خلق السموات والأرض وأبدعهما على غير مثال بهذا الإتقان والجمال، فكيف يكون له ولد وليس بمحتاج إلى بر الولد وعونه، فهو غني عمن سواه، وسواه محتاج إلى كرمه وعطاياه، ثم إنه - سبحانه - لم يتخذ زوجة ليأتي منها الولد، فهو أحد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفؤًا أحد؛ لأن من أنجبه والداه يكون قبلها عدمًا، والله أولٌ ليس قبله شيء، ومن له ولد فإنه يُورِّث، والله يرث الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين، وهو - سبحانه - خلق كل موجود من العدم فلا يحتاج إلى ولد، فالخلق كلهم عبيده، لا يريد منهم نفعًا ولا يخشى منهم ضرًا، ثم إن علمه واسع شامل كامل محيط بكل شيء، علم به ما في الضمائر، واطلع على ما في السرائر، فبالخلق يصنع ويبدع، وبالعلم يُعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، ويحكم ويشرّع.

﴿١٠٢﴾ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾

ذلك الذي يوصف بهذه الأوصاف هو الله المستحق للألوهية وحده؛ لأنه ربكم الذي ربّاكم بنعمه وأفضاله، فلا معبود بحق سواه، ولا إله إلا هو، أوجد كل شيء من العدم، وصور فأحسن، وأبدع فأتقن، فاخضعوا لعظمته، وانقادوا لوحدانيته، وأفردوه بالعبادة، ووحدوه بالطاعة، وهو المتوكل بكل شيء خلقًا ورزقًا وتدبيرًا وتصريفًا لم يوكل أمر عباده لغيره، بل تولى حفظهم ومراقبتهم ومحاسبتهم وكل شؤونهم.

﴿١٠٣﴾ ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾

لا تحيط به الأبصار ولا تراه في الدنيا، بل تراه في الآخرة، وهو يحيط بالأبصار ويعلم الأسرار، ويطلع على كل ما خفي وظهر من الأخبار، وهو لطيف بأوليائه يوصل إليهم المحاب من حيث لا يحتسبون، ويوفقهم لمصالحهم من حيث لا يشعرون، تلطف بهم في حسن الاختيار، وجنبهم الأخطار، وهو خبير بما دقَّ من الأمر وغمض من الشيء، فهو المحيط بالحقائق العالم بالدقائق.

﴿١٠٤﴾ ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾

قد جاءتكم - أيها الناس - براهين ساطعة وأدلة قاطعة، تميّزون بها بين الحق والباطل، والرشاد والغي، من أدلة الكتاب والسنة، فمن عرف هذه الحجج وعمل بها، فقد نفع نفسه وأنقذها من العذاب، ومن أعرض عن هذه الأدلة، وغفل عن هذه البراهين فضرره على نفسه، فقد حرمها الثواب، وعرّضها للعقاب، وما أنا أي (محمد) بحفيظ أطلع على أحوالكم وأحاسبكم على أعمالكم، بل أنا مبلغ أدلكم على الهدى، وأحذركم من الردى، والجزاء على الله سريع الحساب.

﴿١٠٥﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾

وكما بيّنا الأدلة الواضحة في مسائل الإيمان والرسالة واليوم الآخر نبيّن الأدلة في كل شأن يهم الإنسان، ليكون كل أمر في غاية البيان، ودعهم يقولون لك بعد هذا كذبًا منهم وزورًا: إنك تعلمت هذا من أهل الكتاب، ولكننا سوف نوضح الحق لمن يعلمه ويتفقه فيه ويفهم معانيه، ويقبله ويعمل به، وهم أتباع الرسل، وطلاب الحق، وعباد الرحمن، وحملة الميثاق، أما الجهلاء المعرضون فبهائم سائمة، لا تقوم لهم في سوق الحق قائمة.

﴿١٠٦﴾ ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾

اتبع - أيها النبي الأمي - الكتاب الذي أنزلناه إليك، واعمل به واهتد بهداه، ممتثلاً بما أمر، منتهيًا عما نهى، فالمقصود بإنزاله العمل لا مجرد التلاوة؛ لأنه نزل لتزكية النفوس، وإصلاح الحياة، واعلم أنه لا يستحق العبادة إلا الله، فهو الذي لا إله إلا هو، فأخلص الطاعة له، وأفرده بالوحدانية، وما عليك ممن أشرك، فلا تهتم ولا تبال بإعراضهم، فالله كافيك، وهو حسبك وسوف ينصرك عليهم.

﴿١٠٧﴾ ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾

ولو أراد الله ألا يشرك المشركون ما أشركوا به شيئًا، ولكنه كتب ذلك عليهم، وقدَّره لهم لما علم الله من قبح سرائرهم، وخبث نيّاتهم، فأوكلهم إلى أنفسهم وسوء اختيارهم، فهو - سبحانه - مقدّر هداية المهتدي وضلال الضال والقاضي بالخير والشر في العالم.

ولست عليهم - يا محمد - مراقبًا لأعمالهم تحصيها، ولست بقائم بمصالحهم تدبرها وتصرف أمورهم، بل أنت رسول مبلغ، ونبي مبشر ومنذر، أما محاسبتهم ومراقبتهم ومعاقبتهم فعلى الله وحده.

﴿١٠٨﴾ ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ۖ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

لا تسبوا - أيها المسلمون - آلهة المشركين فيكون ذلك سببًا لسب المشركين إلهكم - عز وجل- جهلاً منهم واعتداء وزورًا وبهتانًا؛ لأنهم لا يعلمون ما لله من عظمة وجلال وعلو وكمال، وما يجب له من توقير وتقدير ومحبة وخشية، وتنزيه وتقديس، فالأمر المباح إذا أوصل إلى محرم حُرِّم، والمشروع إذا أدى إلى مفسدة منع، فسد الذرائع الموصلة إلى المحرمات واجب، ومثلما حسّنا فعل هؤلاء المشركين في عيونهم حتى صار حسنًا لما اختاروا الضلال، حسّنا أفعال كل أمة، فالمهتدي حسن عنده عمله الصالح، والغاوي حسن لديه فعله القبيح، ثم يعود الجميع إلى عالم الغيب والشهادة فيجازي كلاً بما فعل، إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر؛ لأنه علم الأعمال وأحصاها، ولديه ثوابها وعقابها.

﴿١٠٩﴾ ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

وقد حلف المشركون بكل يمين: لو أتاهم محمد ﷺ بمعجزة خارقة ليصدقن بها وليتبعنّه عليها، فأخبرهم - يا محمد - أن هذا الأمر ليس إليك، وإنما هو إلى الله متى شاء أنزل الآيات، أنزلها بعلم وحكمة، أما أنت - يا محمد - فما عليك إلا تبليغ الدعوة، وهل عندكم يقين - أيها المسلمون - أن المشركين إذا جاءتهم هذه المعجزات سوف يصدقون بها؟ بل عرف من حالهم أنهم لو شاهدوا كل معجزة ما صدقوا بها؛ فقد طُبع على قلوبهم بالكفر، فعميت عن معرفة الدليل، فلا نفع لبرهان ولا أمل فيهم للإيمان.

﴿١١٠﴾ ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾

هؤلاء المشركون نحوّل قلوبهم وأبصارهم عن الإيمان بالآيات، والانتفاع بالعِظات؛ جزاء كفرهم بالرسالة أول مرة ما سلف من تكذيبهم بالوحي؛ فجزاء المعصية معصية أخرى، ومن زاغ أزاغ الله قلبه، وسوف نترك هؤلاء المشركين في ظلمات شكهم حائرين، وفي أهوائهم مضطربين، لا يوفقون إلى الرشاد، ولا يلهمون السداد، فهم في ظلام الأوهام، وفي شبه أو شباك الشك، لا نَقْل ينفعهم ولا عقل يزجرهم.

﴿١١١﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾

ولو أننا لبَّينا طلب هؤلاء المشركين وأجبنا سؤالهم فأنزلنا من السماء ملائكة عليهم يرونهم عيانًا بيانًا، وأحيينا لهم الموتى فكلموهم، وجمعنا ما سألوه من كل شيء أمام عيونهم ما صدقوك في دعوتك، ولا أجابوك في رسالتك، ولا اتبعوك إلا إذا أراد الله ذلك، وأكثرهم لا يعلمون الحق الذي بعثت به، بل يجهلون أنه من عند الله فهم يردونه بلا علم ويسمعونه بلا فهم.

﴿١١٢﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾

ومثلما امتحنا سائر الأنبياء بأعداء من الكفار، امتحناك - يا محمد - بطائفة من الفجار، وهؤلاء الأعداء من أشرار الناس ومردة الجن يوصي بعضهم بعضًا بالباطل الذي حسّنوه، والرجس الذي زيّنوه؛ ليصدوهم عن الهدى؛ خديعة يخدعون بها من أنصت لهم، ويغرّون من استمع لباطلهم، ولو أراد الله أن يمنع وقوع هذا لمنعه، لكنها حكمة الابتلاء، ونفوذ القضاء، واستحقاق الغواية لأهل الشقاء، فاتركهم وما يخترعون من زور، ولا تهتم بهم وما اختلقوه من كذب؛ فالباطل على جرف هار ومصيره إلى النار، والحق في عزة من الجبار والعاقبة لأوليائه الأبرار.

﴿١١٣﴾ ﴿وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾

وإذا قبل الكفار الباطل وآثروه على الحق فلتمل إليه قلوبهم؛ لأنهم لا يصدقون بلقاء الله ولا يعملون له، وليحبوا هذا الباطل وليتبعوه، فضرر ذلك عليهم، ومغبة عملهم السيئ واقعة بهم، والله غني عنهم وليس محتاجًا إليهم، وليفعلوا ما أرادوا من الفساد والإعراض عن الهدى والرشاد، فإن ربك لبالمرصاد.

﴿١١٤﴾ ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا ۚ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ﴾

قل - يا محمد - لهؤلاء المشركين: هل أطلب حَكَمًا يفصل بيني وبينكم فيما اختلفنا فيه غير الله إلهي وإلهكم عالم الغيب والشهادة أحكم الحاكمين، الذي يحكم بالعدل ويقضي بالفصل؟! وكذلك النصارى واليهود الذين عندهم التوراة والإنجيل تشهد برسالتي وتقرر نبوتي، وأهل الكتاب يعلمون يقينًا أن القرآن من عند الله وليس من عندي، ثم أَمَرَهُ رَبُّه أن يثبت على الحق ويستمر على اليقين، ولا يشك في الحق الذي معه والنور الذي أرسل به، فوثوق الداعية بصحة منهجه من أعظم عوامل ثباته وانتصاره.

﴿١١٥﴾ ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾

وتم القرآن بآياته الصادقة في الأخبار، والأقوال العادلة في الأحكام، فلا يستطيع بشر أن يغيّر هذا الكلام المحكم، والقول الصادق، والله وسع سمعه كل مسموع، وأحاط علمه بكل معلوم، فالأقوال والأفعال والأحوال مسموعة معلومة لديه -عز وجل-.

﴿١١٦﴾ ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾

ولو حصل أنك أطَعْتَ الضُّلالَ من سكان الأرض لحرفوك عن دين الله وصراطه المستقيم، فأكثر الناس غاوون، وقليل منهم مهتد، والكثير ليس على بينة ولا يقين من أمره، إنما هو على وهم وظن، فخيالهم فاسد، وتصورهم كاذب، فلا يقين في المعتقد، ولا صدق في القول، ولا صلاح في الفعل.

﴿١١٧﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾

وربك الذي تولى أمرك عالم بمن انحرف عن سبيل الهدى، وعالم بمن استقام على أمره واهتدى بهداه، فهو وحده الذي أضل من شاء، وهدى واطلع على أعمال الجميع.

﴿١١٨﴾ ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾

فيا أيها المؤمنون: خالفوا المشركين، فلا تأكلوا من الذبائح إلا ما ذُبح لله وذُكر عليه اسم الله إن كنتم آمنتم بآيات الكتاب ونصوص السنة، وصدقتم الرسول ﷺ، فالتصديق يقتضي الامتثال بسداد الأقوال وصلاح الأعمال وأكل الحلال.

﴿١١٩﴾ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ﴾

ما يمنعكم من الأكل مما ذكر اسم الله عليه، والله قد بيّن لكم الحرام من الحلال؟! وقد أباح الله لكم ما حملتكم الضرورة على أكله كشدة الجوع؛ كأكل لحم الميتة بلا بغي ولا عدوان، وكثير من الناس منحرفون عن الجادة يسعون للفساد في الأرض وينشرون الضلال بين الناس، ويحلّون الحرام، ويحرّمون الحلال؛ جهلاً منهم، والله يعلم الفجرة الذين يتجاوزون حدود الله، وسوف يحصي ما فعلوه ويعاقبهم على ما ارتكبوه، وفي الآية أن الهوى أعظم عدو للهدى.

﴿١٢٠﴾ ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا۟ يَقْتَرِفُونَ﴾

واهجروا المعاصي جهرًا وسرًّا، فالله لا تخفى عليه خافية، فكل ما حرم الله فاتركوه خفي أم ظهر، والذين يعملون السيئات ويرتكبون المحرمات سينالون جزاءهم على ما فعلوه، وفي الآية وجوب المراقبة الدائمة وشؤم المعصية والحذر من عواقبها.

﴿١٢١﴾ ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾

ولا تأكلوا ما ذُبح على غير اسم الله كالذبح للصنم وللكاهن والعراف ونحوها، وأكل هذه الذبائح تجاوز لحدود الله، وتعدٍّ وتحدٍّ لشرعه، وعصاة الجن يأمرون أولياءهم من أشرار الإنس بإلقاء الحجج الواهيات، وانتحال الكذب والشبه، مثل كيف تأكلون ما ذبحتم أنتم ولا تأكلون ما ذبح الله -يقصدون الميتة-؛ وإذا اتبعتم ضلالهم في تحليل ما حرم الله فقد اشتركتم في الشرك.

﴿١٢٢﴾ ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

أو ليس الذي كان ميتًا في الكفر، هالكًا في الضلالة، حائرًا في الظلمات فأحييناه بالإيمان، وهديناه بالقرآن، ووفقناه لاتباع الرسول ﷺ، فسلك طريق الهدى واجتنب طريق الردى، وعَمَّر قلبه باليقين، وزَكَّى نفسه بالتقوى، هل هذا الصالح المصلح مثله كمثل من بغى في ظلمات الضلالة، وفي شبهات الجهالة، لا نورٌ يهديه، ولا وحيٌ يحييه، ولا إمامٌ يدله، فهو في ليل دامس من الكفر والفجور، هل يستوي هذا وهذا؟ والجواب معروف: لا يستويان، وكما أضللنا هذا الكافر وخذّلنا هذا الفاجر بتحسين عمل السوء له لمَّا اختار الضلال، كذلك حسّنا للمشركين أعمالهم القبيحة وأفعالهم السيئة، فَصَارُوا يرونها جميلة لتحق عليهم كلمة العذاب وسنة العقاب.

﴿١٢٣﴾ ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾

أسوة بما حصل لرؤساء الشرك بمكة من محاربة الرسالة والإعراض عن الحق جعلنا في كل قرية كافرة رؤساء يتزعمون قومهم بالضلال، ويمكرون بالرسل ويسخرون من المؤمنين، ثم تكون الدائرة عليهم والعاقبة لأولياء الله، وما شعر هؤلاء المجرمون أن العاقبة للمتقين، وهي سنة ماضية وحكمة نافذة.

﴿١٢٤﴾ ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ﴾

وإذا أتى كفارَ قريشٍ دليلٌ ظاهرٌ يدل على رسالة الرسول ﷺ قال زعماؤهم: لا نصدق بهذا الدليل حتى يعطينا من المعجزات مثلما أتى به الرسل السابقون؛ لنكون كالأنبياء، فقال الله لهم: الله أعلم بمن يستحق هذا التكريم، ويستأهل هذا الشرف من الناس، فلا ينال الرسالة إلا من اصطفاه الله بعد أن علم أهليته لذلك، أما أنتم أيها المجرمون فويل لكم من ذلّ ينتظركم، وهوان يحل بكم، وعذاب موجع أليم، ونكال مقيم؛ جزاء أفعالكم الشنيعة، ومكركم الدنيء، ومحاربتكم لله ولرسوله ﷺ.

﴿١٢٥﴾ ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾

من يشأ الله هدايته لدينه ييسره له، ويسهله عليه، ويوسع صدره لقبوله والفرح به، ومن يشأ أن يضله يضيق صدره أشد الضيق؛ فيبغض الهدى، وينفر من الدين. ويكره الرسالة المحمدية، فكأنه يعلو في طبقات الجو من ضيق نفسه

وقلة الهواء حتى يكاد يصاب باختناق شديد، وهذا مثل صدر الكافر والمنافق.. غم وهم وكدر وضيق، وكما عذبهم الله بضيق الصدر وشتات الأمر يحل بهم عذابه الشديد؛ لأنهم ما آمنوا به وما صدقوا برسالته؛ ولذلك من أراد السعادة فعليه بالإيمان؛ ففيه قرة العين وراحة البال واستقرار النفس.

﴿١٢٦﴾ ﴿ وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴾

وهذا الدين الذي أنزلناه، والشرع الذي أوحيناه، هو الطريق الأسلم، والمنهج الأحكم، فلا اضطراب فيه ولا عوج، وقد أوضحنا علاماته وبيّنا آياته لمن أحب أن يعتبر بحكمه وينتفع بعظاته ويستضيء بنوره من أهل العقول السليمة والفطر القويمة.

﴿١٢٧﴾ ﴿ لَهُمْ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

للمؤمنين المهتدين جنات النعيم في الآخرة وهي دار السلامة من الآفات والأمن من المنغصات، فلا سقم ولا هرم ولا عدم؛ لأنه ليس بها ضراء ولا بأساء ولا فناء، بل صحة وشباب، وغنى وخلود، والله يتولى أمورهم بالحفظ والرعاية والنصرة، والولاية والرزق والكفاية؛ لأنهم أحسنوا العمل، وأخلصوا النيات، واتبعوا الوحي وهجروا الكفر.

﴿١٢٨﴾ ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ ۖ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا ۚ قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

واذكر يوم يجمع الله الإنس والجن ليوم لا ريب فيه، ويقول للجن: قد أضللتم كثيرًا من الإنس، فرد أولياء مردة الجن من كفار الإنس: يا ربنا قد انتفع بعضنا ببعض في الحياة الدنيا وانتهت أعمارنا التي سميتها؛ لأن لها أجلا معلوما، فأخبرهم - سبحانه - أن مكان إقامتهم الدائمة في النار خالدين مخلدين إلا عصاة الموحدين، فلهم وقت محدود ثم يخرجون؛ لأن الله حكيم في قضائه وقسمته واختياره، يرحم وهو متفضلٌ، ويعذب وهو عادل، عليم بمن يستحق الهدى والضلال، ومن يستأهل الثواب والعقاب، فبحكمته أحسن مواقع قدره، وبعلمه اختار مواضع رحمته وعذابه.

﴿١٢٩﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾

وكما ولَّينا مردة الجن على فسّاق الإنس نولِّي ظلمة الإنس بعضهم على بعض لفجورهم، فيُؤدَّب الظالم بأظلم منه؛ ليعذب العصاة بسوط الطغاة، فمن أراد السلامة من بطش الظالمين فليتقِ رب العالمين، فما وقع استبداد إلا بفساد.

﴿١٣٠﴾ ﴿ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا ۖ وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَشَهِدُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ كَٰفِرِينَ ﴾

يا معاشر الجن والإنس: ألم نقم عليكم الحجة ونقطع عنكم العذر بإرسال رسلنا إليكم يبيّنون لكم آيات الكتاب وأحكام كل شيء ويخوفونكم عذابي يوم لقائي؟ فقال مشركوهم: نشهد أن الرسل بلغونا وحذّرونا، ولكن خدعتنا الدنيا بزخرفها، وغرتنا بغرورها، وألهتنا بفتنتها، واعترفوا بأنهم أشركوا بربهم وكذبوا رسله.

﴿١٣١﴾ ﴿ ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ ﴾

وإنما أرسلنا الرسل وأنزلنا الكتب لئلا يكون لمكذِّبٍ حُجَّة، ولا يكون لكافر عذر، فلا يعذب الله ظالمًا حتى يبلغه النصيحة، ولا يهلك قرية حتى ينذر أهلها العذاب، ومن سنة الله أنه لا يعاقب غافلاً لم تبلغه الرسالة حتى يصله البلاغ وتبلغه الحجة، فالجاهل معذور، والظالم مدحور، والغافل مغرور.

﴿١٣٢﴾ ﴿ وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ ۚ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

لكل عامل من المؤمنين والكافرين منازل يصل إليها سعيهم في الدنيا، يثابون عليها ويعاقبون، وكل ذلك بحساب دقيق من الله لا ظلم ولا هضم، فالمؤمنون درجات في النعيم، والكافرون دركات في الجحيم، فالتفاضل في الثواب والعقاب عدل.

﴿١٣٣﴾ ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَنِيُّ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنۢ بَعْدِكُم مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ ءَاخَرِينَ ﴾

والله ذو الغنى الواسع والخير العميم ليس بحاجة إلى عباده، وهو رحيم، ومن رحمته إمهال من عصاه، ولو أراد لعجّل له العقوبة واستبدل به غيره ممن يعبده ولا يشرك به شيئًا، ولكن حلمه عظيم، فمثلما أوجدكم من أصلاب آبائكم يوجد جيلاً بعدكم من أصلابكم، وغناه - سبحانه - عمن أدبر ورحمته لمن أقبل.

﴿١٣٤﴾ ﴿ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَءَاتٍ ۖ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾

ما وعدكم ربكم به -أيها الكافرون- واقع لا محالة، آت لا ريب، ولن تفوتوا ربكم فجمعكم عنده يسير، وبعثكم لديه سهل، فلا مَنْجى ولا ملتجى منه إلا إليه، يَرُد كل هارب، ويدرك كل طالب، ويغلب كل غالب.

﴿١٣٥﴾ ﴿ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

اعملوا - أيها الكفار - على منهجكم الفاسد وأنا أعمل على منهجي الصحيح، فسوف ينكشف لكم الأمر إذا وقع العقاب من تكون له العزة والنصرة والثواب إذا بانت الحقيقة، فإن من سنة الله أن لا يفوز أعداء الله ولا ينتصرون؛ لأنهم حاربوه وكذبوا رسله وتعدّوا حدوده وتجاوزوا شرعه.

﴿١٣٦﴾ ﴿ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُوا۟ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ ۗ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾

وَهَبَ المشركون لله -عز وجل- جزءًا مما خلق - سبحانه - فأخذوا بعض الثمار والزروع والأنعام للمساكين والفقراء، وهذه سموها لله، وبعضها الآخر جعلوه للأصنام والأوثان كذبًا منهم وزورًا وعدوانًا، فحصة آلهتهم الباطلة لا تصل إلى الله، ولن يقبلها؛ لأنها شرك، والحصة التي عينوها لله واصلة إلى شركائهم لا إلى الله؛ لأنها شرك، فصار عملهم كله وهباتهم شرك مردود عليهم لا يقبل الله منه شيئًا، وربما أخذوا مما جعلوه للمساكين فأهدوه إلى الأصنام، لكنهم لا يأخذون نصيب الأصنام للمساكين، فقبحًا لهم على هذه القسمة الظالمة، وسحقًا لهم على هذه الحكومة الجائرة.

﴿١٣٧﴾ ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُوا۟ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ ۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾

ومثلما حسّنت الشياطين للمشركين جعل نصيبٍ لله ونصيبٍ للأصنام من الرزق حسّنت لهم - أيضًا - قتل الأبناء خشية البأساء؛ كذبًا وافتراءً؛ ليهلكوا الآباء بقتل النفس المحرمة وسفك الدم المعصوم، وليخلطوا عليهم الأحكام، فلا يميّزون بين الحلال والحرام، ولو أراد الله ألا يقع ذلك ما وقع، لكنه حكيم فيما قدَّر، بصير فيما يسر؛ لأسرار قد لا تظهر، فاتركهم وباطلهم وما اختلقوه من كذب، وفعلوه من زور؛ فغدًا الموعد، وسوف يجمعهم لذاك المشهد.

﴿١٣٨﴾ ﴿ وَقَالُوا۟ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴾

وافترى المشركون على الله فجعلوا إبلاً وزرعًا محرمةً على الناس لا يأكلها إلا من أباحوا له الأكل من خدمة الأوثان وسدنة الأصنام، وحرّموا ركوب بعض الإبل ونسبوا التحريم إلى الله كذبًا منهم، ومنعوا ذكر الله على بعض الإبل في ركوبها وذبحها وحلبها وادَّعوا أن الله أمر بذلك، فحسابهم على الله بسبب كذبهم هذا؛ ليوفيهم سوء صنيعهم وبهتانهم الآثم، فالأنعام والزروع رزق من الله يجب أن تكون باسم الله لا يصرف منها شيء لغير الله.

﴿١٣٩﴾ ﴿ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰ أَزْوَاجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾

وادعى المشركون أن ما حملته الأنعام من الأجنة في بطونها حلال للرجال حرام على النساء إذا جاء حيًا، وإذا أتى ميتًا فهو للرجال والنساء، كذبًا وتحكّمًا ممقوتًا سوف ينكّل الله بهم بسبب هذا الافتراء والزور، فالأحكام إنما تؤخذ من شرع الله؛ لأن الله حكيم فيما شرع، صَدَرَ حُكْمه عن علم، وأمره عن قدرة، وتدبيره عن إتقان.

﴿١٤٠﴾ ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

هلك من قتل ولده لجهله وحمقه وعدم اهتدائه بشرع ربه، وهلك من حرم ما أحل الله ونسب هذا التحريم إلى الله، فالله وحده المشرع على لسان رسله وفي كتابه، أما الإنسان فأضل وأذل وأقل من أن يحلل ويحرم ويشرّع (إن الحكم إلا لله) ومن فعل هذه الأفاعيل فقد ركب مركب الغواية، وأخطأ طريق الهداية؛ لأنه صرف حق الخالق للمخلوق، وهذا فسوق وعقوق.

﴿١٤١﴾ ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾

والله وحده هو الذي خلق الحدائق الغناء، والبساتين الخضر من الشجر المختلف، منه ما هو قائم على وجه الأرض يرفع إلى السماء؛ كالنخل والزرع والزيتون والرمان، ومنه ما هو غير مرفوع، وهو يتشابه في المنظر ويختلف في الطعم، كلوا شاكرين لله من ثماره بعد نضجه، وأدّوا الزكاة منه والصدقة يوم تقطفونه طهرةً ونماءً ومواساةً، ولا تتعدّوا الحد المشروع في الإنفاق أو الإمساك، فلا تقتير ولا تبذير، فالله لا يحب البخيل ولا المبذر، ولكن يحب السخي الجواد المخلص.

﴿١٤٢﴾ ﴿ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴾

والله خلق لكم ما يحملكم لضخامة جسمه وقوته وارتفاعه كالإبل، وخلق لكم ما فيه منافع غير الركوب كالبقر والغنم، كلوا من الحلال الطيب، ولا تطيعوا الشيطان وأولياءه في تحليل الحرام وتحريم الحلال؛ لأن الشيطان ظاهر بعداوته لكم، يصدكم عن طاعة الله ويدعوكم إلى معصيته من عبادة الأصنام وارتكاب الآثام وأكل الحرام.

﴿١٤٣﴾ ﴿ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ ۖ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّئُونِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾

الأنعام التي خلقها الله للناس ثمانية أنواع: من الإبل والبقر والضأن والمعز ذكورًا وإناثًا، فاسأل المشركين، هل الله حرّم الذكرين من الغنم؟ فإن قالوا بالتحريم فقد كَذَبوا؛ لأنهم لا يحرمون ذكران المعز والضأن، واسألهم هل حرّم الله ما حملت به أنثى الضأن والمعز؟ فإن قالوا بالتحريم فقد كَذَبوا؛ لأنهم لا يحرِّمون كل ما حملت به أنثى الغنم، فأخبروني ما دليلكم فيما ذهبتم إليه إن كنتم على يقين من صحة قولكم في تحريم هذه الأنواع، بل هو التخرص والكذب والافتراء على الله؛ لأن المشرك ضال في معتقده وخلقه وطعامه وكل مناحي حياته.

﴿١٤٤﴾ ﴿ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ ۗ قُلْ آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

أربعة أصناف أباحها الله لعباده، اثنان من الإبل واثنان من البقر ذكورًا وإناثًا، فاسأل المشركين هل حرّم الله الذكرين أم الأنثيين؟ أم حرّم الله ما حملت به الأنثيان؟ والجواب: إن هذا كذب منهم وافتراء على الله، فهل حضروا هذا الأمر يوم نهاهم الله عن ذلك؟ أم هل عندهم بيّنة؟ فلا أعظم من إثم من فعل هذا الفعل وافترى على الله ليصرف العباد عن طاعة الله إلى معصيته، والله لا يوفق من خالف الهدى وجانب الحق وأضل الناس، فشرع غير شرع الله باطل، ونسبة هذا الشرع إلى الله أعظم إثمًا وجرمًا.

(١٤٥) ﴿ قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ فَمَنِ ٱضۡطُرَّ غَيۡرَ بَاغٖ وَلَا عَادٖ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

أخبرهم - يا محمد -: أنك لا تجد في الوحي المنَزَّل عليك شيئًا مما حرّمه هؤلاء المشركون الجهلاء غير الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير، فإنه قذر، وما كانت ذكاته لغير الله، حيث ذكر عند ذبحه اسم غير اسمه - سبحانه - لأنه خروج عن طاعته لكن من ألجأته الضرورة بجوع شديد إلى الأكل من هذه المحرمات فله ذلك لا للذّة ولا زيادة عما يسد الرمق، فالله غفور لزلات عباده إذا عادوا إليه، رحيم بهم، قد استثنى لهم الأكل عند الضرورة كرمًا منه ولطفًا، ولم يكلفهم شططًا، ولم يحمِّلهم ما لا طاقة لهم به، فهذا شرع الرحمن في المأكول من الأنعام لا شرع عبدة الأصنام مرتكبي الآثام.

(١٤٦) ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمۡنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٖۖ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ وَٱلۡغَنَمِ حَرَّمۡنَا عَلَيۡهِمۡ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتۡ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلۡحَوَايَآ أَوۡ مَا ٱخۡتَلَطَ بِعَظۡمٖۚ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِبَغۡيِهِمۡۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾

وقد حرمنا على اليهود ذوات المخالب والأظفار من الطير والبهائم تشديدًا، وحرّمنا عليهم شحوم البقر والغنم إلا ما لصق بظهر الذبيحة أو بأمعائها أو بعظامها، وهذا عقوبة من الله لهم لفسقهم وفجورهم وتعديهم حدود الله، وهذا خبر صادق من الله بما حصل من التحريم على اليهود، فانظر لطف الله بأمة محمد ﷺ يُسْرٌ في الأحكام، وتوسعة في الحلال من الطعام، وسماحة يسعد بها الأنام.

(١٤٧) ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمۡ ذُو رَحۡمَةٖ وَٰسِعَةٖ وَلَا يُرَدُّ بَأۡسُهُۥ عَنِ ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴾

فإن كذبك الكفار - أيها الرسول - فأخبرهم أن الله ذو رحمةٍ واسعة لمن آمن به واتبع رسوله، ومن رحمته إمهال أعدائه وعدم الاستعجال على المذنب حتى يتوب، وهو ذو عقاب عظيم وعذاب أليم لمن عصى ربه وحارب رسوله وكذب بكتابه، فالواجب الرجاء في كرم الله وثوابه، والخوف من غضبه وعذابه.

(١٤٨) ﴿ سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴾

سوف يحاجكم المشركون ويقولون: لو أراد الله أن لا يشركوا ما أشركوا، ولكن الله كتب عليهم ذلك احتجاجًا بالقدر؛ فهم - في زعمهم - محكوم عليهم ألا يؤمنوا هم ولا آباؤهم، وكذلك لو أراد الله أن يمنعهم من تحريم ما حرموا من الحرث والأنعام لحصل المنع لكنه شاء لهم هذا الحلال، فأخبرهم أن هذه الشبهة قديمة قد جادل بها الكفار من قبل، فهل كان عندكم علم من الله ودليل على ما فعلتم من أنَّه أذن لكم بذلك، أم هل عندكم علم ثابت بأن الله قدر لكم ما قلتم من الشرك وتحريم ما أحل لكم؟ فأين الدليل على ذلك؟ ليس عندكم إلا شبهات وظنون فاسدة وكذب واضح وافتراء فاضح، فلا دعوى إلا بحجة، ولا تحريم إلا بدليل، ولا علم إلا بيقين.

﴿١٤٩﴾ ﴿ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾

فالحجة القاطعة لله عليكم أيها المشركون، والحق الساطع فيما حكم الله به وليس في حكمكم أنتم من عبادة الأوثان وتحريم الحلال وتحليل الحرام، فالحجة له عليكم وليس لكم عليه - سبحانه - ولو أراد لهداكم للصراط المستقيم، ولكنه ذو حكمة بالغة، وقدر محكم، وقضاء صائب.

﴿١٥٠﴾ ﴿ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾

قل لهؤلاء المشركين الجهلاء: هاتوا شهداءكم الذين يصدقونكم على باطلكم من أن الله حرّم عليكم ما حرمتم على أنفسكم من الحرث والأنعام، فإن شهدوا لهم زورًا فلا تصدقهم فهم آثمون، ولا توافقهم فهم ظالمون، ولا تتبع سبيل من اتبع الهوى فأنت على الهدى؛ لأنهم كذبوا بالآيات وجحدوا الرسالات وارتكبوا المحرمات، وهم كذبوا باليوم الآخر، مع شركهم بالله وعبادة آلهة أخرى مفضلين إياها على الله، فويل لهم من عذاب شديد.

﴿١٥١﴾ ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

قل للناس: تعالوا أبين لكم ما حرّمه الله عليكم بالدليل لا ما حرمتموه بالجهل والتضليل، فالله حرّم الشرك به - سبحانه - وهو أعظم الذنوب، وأوجب الإحسان إلى الوالدين فحقهما مقرون بحقه تعالى، وحرّم عليكم قتل الأولاد من أجل فَقْرٍ حل بكم، فالرازق الله لكم ولهم وأنتم لا ترزقونهم، واجتنبوا كبائر الذنوب ظاهرها وخافيها، وإياكم وقتل النفس المعصومة إلا بما شرعه - سبحانه - من قتل مرتد أو ثيّب زان أو النفس بالنفس.. وهذا مما أوجبه الله عليكم وألزمكم إياه، فعسى أن تعقلوا الخطاب، وتفقهوا الأمر والنهي لتتقوا الله على بصيرة، فهذا شرع الرحمن لا زور الأوثان.

﴿١٥٢﴾ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۖ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾

ولا تأكلوا -أيها الأوصياء- من مال اليتامى إلا إذا كان في ذلك مصلحة لليتيم من تنمية ماله وإصلاح حاله، فيكون ذلك بالمعروف بلا إفساد، حتى إذا بلغ سن البلوغ وظهر حسن تصرفه فادفعوا إليه ماله، وعليكم بالوفاء إذا كِلْتم أو وزنتم، فلا تبخسوا المكيال والميزان، فإنه تطفيف محرّم، وإذا حرصتم على حسن الكيل والوزن فحصل نقص غير متعمد فهذا معفو عنه؛ لأنه فوق الطاقة، واتقوا الله في أقوالكم بحيث تكون عادلة لا جور فيها ولا كذب ولا إثم، سواء في الخبر أو الحكم أو الشهادة أو الرواية أو الشفاعة، ولو كان الحكم والشهادة ضد أحد القرابة فلا محاباة في الحق، وأوفوا بالعهود أو العقود التي بينكم وبين الله، وبينكم وبين الناس، فلا نقض لعهد ولا نكث لعقد؛ وهذه كلها وصايا نافعة من الله أوحاها إلى رسوله؛ لتكون شريعة محكمة، وعسى أن تتعظوا بهذه النصائح وتتدبروا عواقب الأمور ليصلح حالكم وتحسن أعمالكم وتستقيم أقوالكم.

﴿١٥٣﴾ ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

ومن الوصايا سلوك الصراط المستقيم، الذي هو دين الله القويم، فالزموه ففيه النجاة والفلاح؛ لأنه صراط بيّنه الله ودلّ عليه الرسول ﷺ مقصده الحق وسائقه الصدق وحاديه الإيمان، واحذروا أن تسلكوا سبلاً غيره فتهلكوا في

ظلماتها وتضلّوا في فلواتها، فلا تنصتوا لدعاتها، وهذه النصائح مما أوجبه الله عليكم وألزمكم القيام بها، فهي شرع منزل وفرقان مفصّل، ففعل هذه الوصايا يحملكم على فعل الأوامر واجتناب النواهي .

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ ١٥٤

والله هو الذي أعطى موسى التوراة تمامًا لنعمته على المحسنين من أمته، إكرامًا لمن استجاب من أهل ملته، فيها بيان أحكام دينهم وإرشاد لهم لما فيه سعادتهم، وسبب لنيل رضوان الله لمن عمل بها، فتغفر ذنوبه وتضاعف حسناته، وهو الهدى والبيان يحملهم على الإيمان بلقاء الملك الديان والتصديق بيوم الوعيد والاستعداد له، فمن علم أنه ملاق ربه جد واجتهد وراقب الواحد الأحد.

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ ١٥٥

وهذا القرآن العظيم والذكر الحكيم أنزلناه على النبي الكريم، مبارك لمن تلاه وحفظه ووعاه، وعمل به واقتفاه، فامتثلوا ما فيه من العظات، واعملوا بأوامره واجتنبوا نواهيه؛ لتظفروا بالفوز الأكبر، والفلاح الأعظم، والنعيم المقيم بجوار الرحمن الرحيم، فالسعادة في الدنيا والنجاة في الآخرة رهن باتباع القرآن والسنة.

﴿ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴾ ١٥٦

وأنزلنا إليكم هذا القرآن العظيم لئلا تقولوا: إن التوراة نزلت على اليهود والإنجيل نزل على النصارى، ونحن ليس عندنا كتاب، فلم تقم علينا الحجة ونحن لم نَطَّلِعَ على كتبهم حتى نعلم الحق من الباطل، فالآن نزل القرآن، وظهر الحق وبان، وبطل الزور والبهتان.

﴿ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ۗ سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْدِفُونَ ﴾ ١٥٧

ولأجل ألا تحتجوا بعدم نزول كتاب إليكم وتقولوا: لو أُنْزل علينا كتاب مثل اليهود والنصارى لكنا أرشد منهم وأتقى لله فها هو الكتاب أُنزل، والنبي أُرسل، والحق فُصّل، وها هو الهدى قد ظهر، والدليل قد اشتهر، مع رحمة موعودة لمن استجاب، ولطف كريم لمن أناب، فأظلم الناس من كَذَّب بالحجج التي بعث الله بها رسوله ﷺ؛ لأنه كتم الشهادة، ورد الحق وكذب بالصدق، وكذلك من أعرض عن الهدى استكبارًا وعنادًا فهؤلاء لهم أفظع عقاب، وأشد عذاب؛ لتنكرهم للحق ومجانبتهم للرسالة وإعراضهم عن الوحي، فقبحًا لكل معرض وتبًا لكل مكذب.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴾ ١٥٨

ماذا ينتظر هؤلاء الكفار المكذبون إلا أن تقبض الملائكة أرواحهم، أو يجيء الله يوم القيامة مجيئًا يليق بجلاله لفصل القضاء، أو تأتي بعض علامات الساعة كطلوع الشمس من المغرب، فإذا حصل ذلك لا ينفع الإيمان حينئذ لمن لم يؤمن قبل، ولا يُقبل من النفس المؤمنة عملٌ صالح إذا لم تكن عملت به من قبل، فانتظروا ونحن سننتظر ليظهر الصادق من الكاذب، والمحقُّ من المبطل، فسوف يبين لكم صدق رسالتي، وصحة دعوتي، ويكشف لكم زوركم وعملكم القبيح، فإذا قامت الساعة أُكرم أهل الطاعة، وخاب أهل البهتان والشناعة، فأنتم تنتظرون العذاب، ونحن ننتظر الثواب.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ ١٥٩

إن الذين اختلفوا في دينهم بعد الاجتماع على التوحيد وصاروا فرقًا مختلفة وأحزابًا متناحرة إنك بريء منهم ومن فعلهم، فأنت على بينة من ربك وصراط مستقيم، أما هم فمردهم إلى الله ليخبرهم بسوء الأعمال، ثم ينكل بهم أقبح نكال، أما أهل التوحيد والاجتماع على الحق فلهم مقعد الصدق، مع اللطف والرفق، والرفعة والسبق.

﴿١٦٠﴾ ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾

من أتى يوم القيامة بعمل صالح فله على الحسنة عشر أمثالها كرمًا من الله وتفضلاً، ومن أتى بسيئة عُوقب بمثلها بلا زيادة، إلا أن يعفو الله حلمًا وصفحًا، لا ظلم بزيادة سيئات لم تعمل، ولا هضم بنقص حسنات، بل عدل وفضل.

﴿١٦١﴾ ﴿ قُلۡ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

قل أيها النبي: إن الله وفقني لدين قويم وصراط مستقيم، هو دين إبراهيم الحنيف الموحد المسلم البريء من الشرك، فأنا على هذا المنهج استقامة بلا اعوجاج، ووحدانية بلا شرك، وسماحة بلا عسر.

﴿١٦٢﴾ ﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾

قل -يا محمد-: إن صلاتي وطاعاتي وذبحي وقُرُباتي وسائر عباداتي وما أقدمه في حياتي، وما ألقى به ربي بعد مماتي كل ذلك أفعله مخلصًا لربِّي لا رياء فيه ولا سمعة، ولا شرك ولا شك، فالحياة كلها لله، والآخرة جميعها لله؛ لأنه الذي ربى الخلق بالرزق، فحقه أن يُعبد ويُوحد.

﴿١٦٣﴾ ﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرۡتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾

ولن أشرك بربي شيئًا في أي عمل من الأعمال، وقد أمرني ربي بإخلاص التوحيد والعبادة له فامتثلت أمره، وأنا أول من سمع وأطاع من أمتي، فأنا إمامهم وأولهم في الطاعة.

﴿١٦٤﴾ ﴿ قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَبۡغِي رَبّٗا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيۡءٖۚ وَلَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٍ إِلَّا عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾

قل - أيها النبي للمشركين -: أتريدون أن أعبد ربًّا غير الله الذي خلق الكون ودبّره ورزق الخليقة؟ فهو المستحق للعبادة وحده، وكل نفس عملت سوءًا فعقابها عليها وحدها، ولا تحمل نفس بريئة ذنب نفس آثمة، فلن يُحاسب أحدٌ بذنب سواه، ومرد الجميع للحساب إلى الله، فيخبركم بأفعالكم ويجازيكم على أعمالكم، فهو العالم بأحوالكم.

﴿١٦٥﴾ ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمۡ خَلَٰٓئِفَ ٱلۡأَرۡضِ وَرَفَعَ بَعۡضَكُمۡ فَوۡقَ بَعۡضٖ دَرَجَٰتٖ لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلۡعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾

الله وحده الذي جعل بعضكم يخلف بعضًا في الأرض للعمار والنماء، وجعل بعضكم أرفع من بعض في مراتب العلم والمال والجاه والقوة ونحوها، ليمتحنكم بما وهبكم، ويعلم الشاكر من الجاحد، والله سريع العقاب لمن عصاه، غفور لمن اتقاه، رحيم بمن التجأ إليه ودعاه، فالمعرض مدحور، والتائب ذنبه مغفور، والصالح عمله مشكور، فالطائع ينبغي له أن يكون بين الخوف والرجاء.